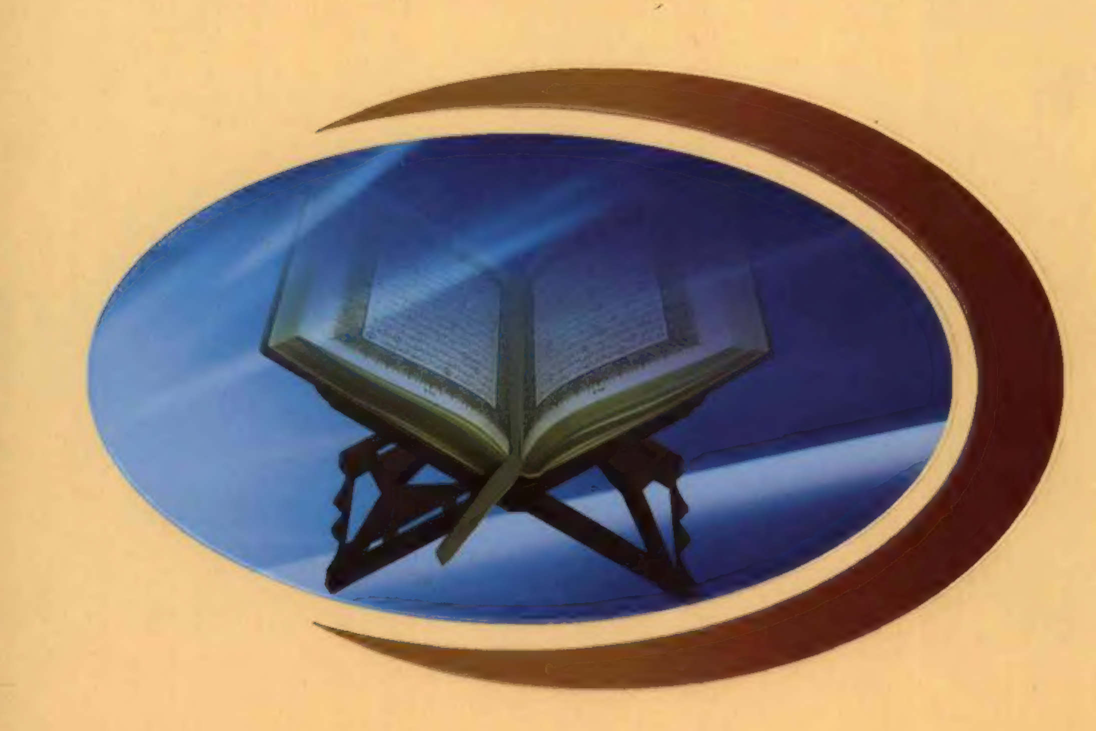
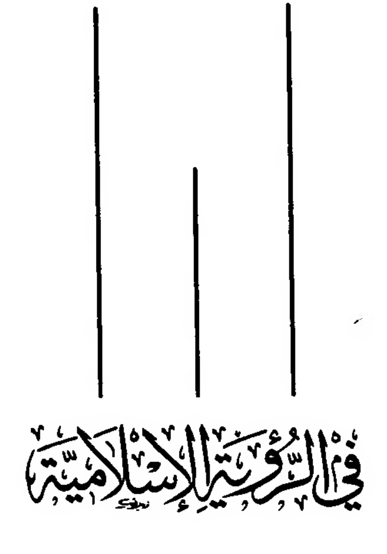
في الرؤية الإسلامية



الدكتور عماد الدين خليل

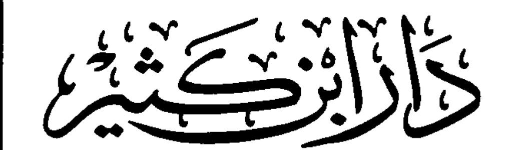
دار ابن كثير


في الرؤية الإسلامية



طبعة دار ابن كثير الأولى

1426 هـ ـ 2005 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : دراسات إسلامية

العنوان : في الرؤية الإسلامية

التأليف : الدكتور عماد الدين خليل

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 136

القياس : 17×24

نوع التجليد : فني سلوفان

الوزن : 0.6 كغ

التنفيذ الطباعي : دار القماطي للطباعة

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



تأليف

الدكتور عماد الدين خليل



دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

في مقدمة كتاب «مؤشرات إسلامية في زمن السرعة»[١] وردت الملاحظة التالية: «في زمن السرعة والاختزال والتركيز يتحتم على المفكر المسلم، إلى جانب أبحاثه المنهجية الشاملة، أن يطرح رؤاه ومواقفه وأحكامه وتحليلاته، عبر صيرورة الحياة المتدفقة، مركزة مختزلة، بمقالات أو ربما بكلمات قصار».

وفي مقدمة كتاب «آفاق قرآنية»[٢] الذي سبقه في الصدور، ترد الملاحظة التالية: «ثمة في حياة المسلم المعاصر أحداث وتجارب وعلاقات وقيم وآراء ومبادئ واتجاهات ووقائع ونزعات... يتحتم عليه أن يقف إزاءها، بين الحين والحين، لكي يسلط عليها من زاوية رؤياه الإسلامية، تحليله وفحصه واختباره، ويصدر حكمه ـ ويتخذ من ثم ـ موقفه..».

وتختتم المقدمة بالإشارة إلى أن الكتاب يتضمن رصداً «العشرات من التجارب والقيم والوقائع، مما يعرض في حياتنا اليومية الراهنة، أو في ساحات الفكر والعقيدة...» إلى آخره...

(١) مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٩٨٤ م.

(٢) دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٩ م.

فإذا كان كتاب «آفاق قرآنية» قد رصد تجارب ومواقف ووجهات نظر عبر أواخر الستينيات وبداية السبعينيات، وإذا كان كتاب «مؤشرات» قد واصل الطريق عبر السبعينيات، فإن هذا الكتاب الذي يجده القارئ بين يديه يجيء مكملاً لصنويه فيرصد بَعض ما يستحق المتابعة والتعقيب مما تجمع لدي في مطالع الثمانينيات.

مرة أخرى، يبدو المقال الموجز ذو الصفحتين والثلاث ضرورياً في زمن السرعة، والتكاثر، والوقت المحدود، شرط أن تتضمن هذه المقالات قدراً من التصاميم الذهنية، وتتابع التجربة أو الخبرة بالتركيز المطلوب الذي يلم بأطراف المسألة بأكبر قدر ممكن من الاقتصاد في اللغة دون إغفالٍ لجمالياتها بطبيعة الحال.

أستميح القارئ عذراً إنْ أخطأتُ أو قصَّرت، وأنتظر منه تسديد الخطأ والإرشاد إلى الصواب... وإلى الله وحده نتوجه بالأعمال.

الموصل / د. عماد الدين خليل

الحضارة فعل لا نقل

نحن الآن، وكما يقال، في سباق حضاري مع الغرب. . .

هم يسبقوننا بنصف قرن، كما يقال أيضاً، ونحن نحاول أن نختزل هذه المسافة الزمنية بجهد مضاعف لكي نلحق بهم ونتفوق عليهم. . .

هذا كله صحيح. . . بل هو ضرورة من الضرورات التاريخية بالنسبة لكل أُمة حية تسعى لأن يكون لها مكان محترم في هذا العالم، وإلى أنْ تتحقق بالشروط اللازمة لهذا الاحترام. . وإلا لما شهد التاريخ تلك المسابقات الحضارية المتواصلة بين الأمم والشعوب، وذلك التغير المستمر في المواقع المتقدمة، تارة لهذه الأمة المتقدمة، وحيناً لتلك. . وتارة لهذا الشعب، وحيناً لذاك، قياساً على مدى القدرة التي تبذلها أمة ما من الأمم، أو شعب ما من الشعوب، للإسراع في الوصول إلى خط النهاية واحتلال الموقع المتقدِّم ذاك. .

والأمم التي لا تبذل الجهد الكافي، أو تقدم الحد الأدنى على الأقل، فإنها لن تبلغ هدفها أبداً، بل إنها ستخرج منذ التصفيات الأولى للسباق الحضاري، ولن تتاح لها حتى فرصة الاشتراك فيه.

وهنا يبرز السؤال الذي ينتظر جوابه الصريح: تُرى هل إنَّ محاولتنا الراهنة للفوز بالسباق استكملت أسبابها حقاً؟ وهل انطلقنا عند خط البداية على الخطوط المرسومة للوصول إلى الأهداف؟

يكون المرء منافقاً لو أجاب بالإيجاب أو على ـ أقل تقدير ـ جاهلاً، قصير النظر، غير قادر على فهم واستيعاب مجريات الأحداث التي تتمخض أمام عينيه، ولابد من الاعتراف بهذا الخطأ الكبير الذي ظللنا نمارسه منذ أكثر من نصف قرن ولانزال. لابد من الاعتراف من أجل ألّا نضيع فترات أخرى من الزمن ونهدر طاقات وقدرات أخرى... ونعطي الفرصة للغرب كي يبعد عن مواقعنا الحضارية ويحلّق في السماء السابعة ونحن لانزال نتخبط في البِرَكِ والمستنقعات.

وإذا أردنا أن نشخِّص السبب الرئيسي الذي قادنا إلى هذا الخطأ، وضيَّع علينا هذا الذي ضيَّعه لوجدناه يكمن في عبارة واحدة: لقد فهمنا الملاحقة أو التنافس الحضاري على أنه نقل عن المتفوّقين وليس فعلاً يتحتم أن نمارسه بعقولنا وخبراتنا وأيدينا، وأن نصوغه من عقيدتنا ورؤيتنا وإيماننا الخاص.

إنَّ مدننا تشهد ـ كما قال بعض المعلقين ـ «ثورات كونكريتية»... شوارع فسيحة، تطل عليها عمارات أنيقة شاهقة كتلك التي تطل على شوارع نيويورك ولندن وباريس..

وإنَّ دُورَنا تشهد تراكماً في مقتنياتها الصناعية الحديثة، من الثلاجة، إلى المجمدة، إلى التلفزيون، إلى الغسالة الفول أوتوماتيك إلى الفيديو... إلى آخره.. وهي مقتنيات صنعت في الغرب، أو أنَّ أجزاءها صنعت هناك ولم نفعل نحن سوى أننا ربطنا هذه الأجزاء.

وإنَّ مؤسساتنا تشهد اعتماداً متزايداً على آخر المبتكرات التقنية، بدءاً بالمصانع الميكانيكية وانتهاءً بالحاسبات الإلكترونية والروبوت...

ولكن هذا كله لم يجعلنا نقف على قدم المساواة مع الحضارة الغربية، بل إنه لم يقرب المسافة الحضارية بيننا وبينهم ولو شبراً واحداً...

ظلت هذه المسافة كما هي، بل إنها أغلب الظن زادت اتساعاً.. لماذا؟ لأن كل مافعلناه هو أننا نقلنا بعض معطيات الحضارة الغربية نقلاً شيئياً أو تجارياً صِرفاً، وجعلناها تتراكم في مدننا ودورنا ومؤسساتنا دون أن يكون لدينا أحياناً حتى الكوادر البشرية القديرة على استيعابها وتشغيلها...

ووقفنا عند هذا الحد؛ النقل عن الثمار المادية للحضارة الغربية... وهذا وحده لا يكفي..

صحيح أنه يعدُّ، في مرحلتنا الراهنة، ضرورة من ضرورات الحياة الملزمة، لكنه بحدِّ ذاته أي بالوقوف عنده دون اتخاذ الخطوة الأخرى التي توازيه وتحتويه، لن نكون قد فعلنا شيئاً..

قد نتحقق بالرفاهية المادية.. ولكننا لن نتحقق بشروط السباق الذي يُمكّننا من منافسة الآخرين.. بكل تأكيد..

والخطوة المطلوبة هي أنْ نعكس المقولة الخاطئة، فندرك أنَّ الحضارة فعل وليست نقلاً..

وهذا الفعل الذي يتحتم أنْ يتميز بالأصالة والذاتية وقوة الشخصية، لايتشكَّل في الفراغ أو ينبثق عن الفراغ..

لابد أنْ تكون هناك عقيدة دافعة، وإيمان محفِّز، ورؤية شاملة، وأهداف محددة، وخصوصية متميزة.

ومن أين نأتي بالعقيدة، والإيمان، والرؤية، والهدف، والخصوصية، إن لم نستمدَّها من الإسلام نفسه.. الإسلام الذي صنعنا وحضَّرنا أول مرة، وهو قادر أبداً أنْ يعيد صنعنا وتحضيرنا؟!

الإسلام الذي نفخ فينا يوماً روح العمل، والفعل، والإنجاز، ومنحنا الشروط اللازمة، ودفعنا لركض المسافات الطوال، ومكّننا من كسر الأرقام

القياسية، وصولاً إلى خط النهاية، والتفوق، والشهادة على الأمم والشعوب والحضارات.

إن أية محاولة لاعتماد عِقيدة أخرى غير عقيدة الإسلام سوف تجعلنا نظل حيث نحن، لأننا نمارس حينذاك خطيئة مزدوجة. ففي حالة النقل الشيئي كنا نأخذ عن الغرب ما يبتكره من أشياء، وهذه مسألة ذات طابع حيادي، قد لا تفعل بأكثر من جعلنا نلهث وراء الغرب باستمرار..

أمَّا في هذه الحالة فإننا ننقل عنه أفكاراً قد تتضمن الكثير من الأخطاء والانحرافات، أو أنها، في أحسن الأحوال، تحمل قيماً مغايرة لقيمنا، مرتطمة بها ابتداء، الأمر الذي قد يقود، أو هو قاد فعلاً إلى هذا الدمار الذي نعانيه، وإلى هذا التزايد المحزن في المسافة الفارقة بيننا وبين الغربيين.

تُرى.. ألم يأنِ الأوان بعد للتفكير جدياً بهذه المسألة، والانطلاق ثانية من خط البداية ونحن نمتلك الشروط التي تمكننا من قطع المسافات الطوال؟!

معاول أخرى في جدار الإلحاد ...

يوماً بعد يوم يتزايد التكشف المذهل لآيتين معجزتين في كتاب الله تتضمنان بعداً زمنياً يشير إلى أن «مرور» الأيام والسنين والقرون سوف يحقق مزيداً من الكسب لمواقع «الإيمان» في العالم، والخسران والاندحار لمنابع الكفر والإلحاد، هنالك حيث تتعرى سنن الطبيعة وحقائق الحياة ونواميس الوجود لكي تدلَّ بما لا يقبل أية لجاجة أو اعتراض على خالقها الواحد، المبدع، واجب الوجود، سبحانه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فيما بين شهري نيسان «أبريل» وتموز «يوليو» من العام الماضي[1] كان بمقدور القارئ العربي «على الأقل» أنْ يضع يديه على ثلاثة أنباء وردت في عدد من الصحف والمجلات العربية، وهي جميعاً تؤكد، بمنطق صارم واضح كنور الشمس، هذا الذي ذهبنا إليه.

إحدى الصحف الخليجية الصادرة في نيسان تطرح تحت هذا المانشيت «شارلز دارون» هزيمة جديدة لنظرية دارون، وعالِمٌ يعترف بأنه زوَّر وثائق لإثبات نمو المخ!

(١) كتب هذا المقال عام ١٩٨٣ م.

النبأ التالي: شارلز دارون صاحب نظرية التطور التي تدعي بأن القرد أصل الإنسان يواجه هزيمة جديدة في الولايات المتحدة. فبعد القرار التاريخي الذي أصدرته محكِمة لوس أنجلوس في ولاية نيويورك في مطلع هذا العام ضد نظرية التطور، والثغرات العديدة في استنتاجاتها، والتوصية بأن يتم في المدارس تدريس الحقائق الدينية عن خلق الإنسان، وإضافة فقرات إلى منهج دارون بأن نظريته افتراضية، دخلت ولاية أركنساس أيضاً في الصراع ضد دارون، وبدأت المحكمة في نظر دعوى مماثلة ضد نظرية التطور...».

الدكتور محمد جابر الأنصاري يترجم عن الفرنسية «المحاورة الأخيرة بين سارتر ودي بوفوار»[1]؛ حيث يرد هذا الاعتراف الخطير على لسان سارتر زعيم الوجودية الملحدة: «أنا لا أشعر بأني مجرد ذرة غبار ظهرت في هذا الكون، وإنما أنا ككائن حسَّاس تم التحضير لظهوره وأُحسن تكوينه. أي بإيجاز ككائن لم يستطع المجيء إلا من خالق».

ويعقب الأنصاري: «هذه العبارة تنسف فلسفة سارتر الإلحادية من الأساس»، ثم يختم مقاله بهذه الكلمات: «وبعد؛ فهذا هو موقف سارتر في ساعة الحقيقة من الفلسفة ومن فلسفته الوجودية وكتبه الفلسفية التي كانت غذاء فكرياً هامّاً لبعض مثقفينا قبل هزيمة حزيران، والتي ما يزال البعض يكتب الآن تحت تأثير منطلقاتها العبثية».

ثم ها هو الدكتور أحمد أبو زيد يذكر في مقال له بعنوان «هل مات دارون حقاً»؟[2] كيف أنه صدر في إنكلترا منذ شهور قليلة وفي أواخر

---

(١) مجلة الدوحة، عدد ٧٧، مايو ١٩٨٢م.

(٢) مجلة العربي، عدد ٢٨٤، تموز ١٩٨٢م.

عام (١٩٨١م) كتاب يحمل عنواناً طريفاً هو (التطور من الفضاء Evolution From Space)، قام بتأليفه عالم الفلك السير فريد هويل (Sir Fred Hoyle)، وعاونه في ذلك أستاذ هندي يدرس الرياضيات في جامعة كارديف. ويعترف الأستاذان بصراحة في ذلك الكتاب بأنهما ملحدان ولا ينتميان لأي دين أو عقيدة، وأنهما يعالجان أمور الفضاء وحركات الكواكب بأسلوب علمي بحت، ومن زاوية عقلانية خالصة لا تحفل ولا تتأثَّر بأي موقف ديني. ويدور الكتاب حول مسألة احتمال وجود الحياة على الكواكب الأخرى، ويتناول بالبحث الدقيق الفكرة التي سادت في بعض الكتابات التطورية عن ظهور الحياة تلقائياً من الوحل الأولى (Primeval Soup) نتيجة لبعض الظروف والتغيرات البيئية.

ومع أن هنالك نظريات معارضة لهذا الاتجاه؛ وهي نظريات ترى أن احتمال ظهور الحياة من هذه الوحل أو الطين الأولى لا تزيد عن ١ : ١٠ فإن هويل يرى بعد حسابات رياضية معقدة وطويلة ودقيقة، أن هذا الاحتمال لا يزيد بحال عن ١ : ١٠ : ٤٠,٠٠٠، أي: واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر، مما يعني أنه لا تكاد توجد فرصة ظهور الحياة عن طريق التوالد التلقائي من هذا الطين، وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون قد نشأت عن طريق الصدفة البحتة، وأنه لابد من وجود عقل مدبر يفكر ويبدل لهدف معين. وعلى الرغم من اعتراف المؤلفين الصريح ـ كما قلنا ـ بإلحادهما؛ فإنهما لا يجدان أمامهما مفراً من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان (الله ـ God).

هل ثمة من داعٍ للتوضيح، أو حتى للتعليق، على الأنباء الثلاثة؛ سوى أنها معاول أخرى تشهدها العقود الأخيرة من هذا القرن[١]، من بين عشرات

(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

ومئات، وهي تنقض لكي تفتح الثغرات في جدار الإلحاد الأصم، القاتم، فتمنح الإنسان المعاصر الذي يغوص في الظلمة، فرصة أكبر لمعانقة نور الله، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها!؟




المهم أن يكون عدوًا للإسلام

لا يملك المرء إلا أن يحار ويدهش وهو يقرأ لبعض كتاب مصر الذين يطلقون على أنفسهم «التقدميين».

إذ كيف يبيحون لأنفسهم أن يكيلوا الثناء والتقدير لعناصر رجعية ـ إذا استخدمنا مقاييسهم هم ـ لعبت دوراً سلبياً في مسار الفكر الحديث، في هذا الجانب أو ذاك؟ كيف يُبدون إعجابهم برجال وقفوا مع الاستعمار ضد التحرير، ومع العدو ضد الأخ والصديق، ومع السلطة ضد الشعب، ومع الغزو الفكري ضد الأصالة، ومع الإقليمية ضد العروبة والإسلام؟!

إننا ونحن نقرأ لحشد من هؤلاء الكتاب الذين تناولوا الحياة الفكرية والأدبية في مصر عبر النصف الأول من هذا القرن[1]، نجدهم، رغم قدرتهم على تغطية هذه المثالب المضادة للفكر التقدمي، بل رغم اعترافهم بها أحياناً، يترددون في شن هجومهم على أصحابها أحياناً، أو مسّهم بالنقد على الأقل.. بل يترددون حتى في توجيه لوم هادئ للمواقف التي اتخذوها، والمواقع الفكرية التي تشبَّثوا بها، ليس بإرادتهم واختيارهم ـ أغلب الظن ـ وإنما بتوجيه وإلزام من الجهات التي آلوا على أنفسهم أن يرتبطوا بها لأنها تعدهم وتُمنِّيهم... والتقدميون يعرفون هذا جيداً!

(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

هنالك نماذج كثيرة، لكننا نختار واحداً منها قد يُغْني عن الصف الطويل، لأن جُلَّ من فيه لا يعدو أن يكون تكراراً نمطياً يتخذ الموقف نفسه، ويصدر عن الرؤية ذاتها، وتحركه الدوافع التي حركت الآخرين. . . «أحمد لطفي السيد».

و«أحمد لطفي السيد» بالذات كان معروفاً عنه كراهيته للعنف، ودعوته الملحَّة لمقاومة الاستعمار بنشر التعليم، وأن هذا هو السبيل الوحيد لطرده من مصر. . . ومعروفاً عنه كذلك انتماؤه للطبقة الإقطاعية، وموالاته للملك، ونزعته الإقليمية التي تقف نقيضاً باتجاه كل ما هو عربي أو إسلامي.

ومع ذلك كله، فإن الأقلام التقدمية التي أرَّخت للحقبة كانت تكيل له المديح والثناء باعتباره واحداً من رواد التحرر والعلمانية! هذه الأقلام التي ادعت أنها أشهرت سلاحها بوجه الملكية والظلم والاستعمار والديمقراطية المزيفة والإقليمية. . تجد نفسها تجاه رجل يمثل هذا كله، عاجزة عن توجيه النقد والتعنيف الذي صبته على رؤوس آخرين قد يكونون أقل بكثير من «أحمد لطفي السيد» ملكية وإقطاعية وإقليمية ومهادنة للاستعمار!

وهؤلاء الكتاب التقدميون الذين أسَرتْهم في الربع الثالث من هذا القرن، هواية التفسير الطبقي للتاريخ، والمجتمع والسياسة، والثقافة. . واستعبدتهم أسطورة الشرائح الاجتماعية، واعتقدوا أن تطمين المصالح هي الدافع والمحرك والهدف لكل نشاط إنساني، وقسموا المجتمع المصري إلى طبقات وفئات، وفسروا سلوك كل منها اعتماداً على ماتملكه من مال، وما تتضمنه جيوبها من نقود هؤلاء الكتاب عندما يقفون أمام رجل «كأحمد لطفي السيد» يكفّون عن صراخهم، ويترددون في تقديم استنتاجاتهم الرتيبة التي يأخذها الواحد منهم عن الآخر، والتي تكاد أن تصبح تقليداً ثقافياً يحكم

بالنفي على كل من يتجاوزه، أو يقف لكي يقول رأياً مخالفاً لمعطياته الجامدة كالصخر، الباردة كالجليد.

ورغم أن «لطفي» ينتمي إلى طبقة الإقطاعيين، ويعمل في حزب يتبنَّى مصالحهم ويدافع عنها، فإنه لا يتلقى الهجوم والنقد الذي كان يتلقاه بكثافة رجال كانوا أبعد بكثير عن طبقة الإقطاع، وأقل ملكية بكثير من الرجل إياه.. بل إن بعضهم كان ينتمي لأحزاب تنبثق من قلب الشعب وتدافع بإخلاص عن قضايا الجماهير بمواجهة الإقطاع والسلطة والاستعمار.

ويجد المرء نفسه مضطراً للتساؤل عن دوافع هذا اللغز المحيِّر..عن الأسباب التي تكمن في هذا التناقض الذي يوقع الكُتَّاب التقدميون أنفسهم فيه؟

وقد لايجد بعد بحث طويل مدعَّمٍ بالأدلة المقارنة والوقائع، ومستند إلى معطيات هؤلاء الكتاب أنفسهم، سوى جواب واحد قد يمنح الإنسان القناعة المفقودة، وهذا الجواب يتمثل بعبارة واحدة، لكنها تعني الكثير، وتفك الطلاسم والألغاز؛ وتلك هي:

ليس مهماً موقع الرجل في خارطة الفكر والممارسة، ولكن المهم أن يكون عدواً للإسلام، مسخراً بأيدي خصومه!!




بروتوكولات صِهْيون..
مرة أخرى

منذ زمن بعيد عندما كان أحدنا يطالع في كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» المعروف، فإن الشعور الذي كان ينتابه هو الإحساس بالمبالغة التي قد تتجاوز حدود المعقول، ويتصور بأن «الحكماء» يتعمَّدون هذه المبالغة لتحقيق غرض ما في نفوسهم؛ فقد تكون صيغة من صيغ الحرب النفسية، وقد تكون «البروتوكولات» في إطارها العام بمثابة حلم أو تخيل لما يتمنى يهود العالم تحقيقه بأي أسلوب!

وبمرور الوقت أخذت الوقائع التي راحت تزداد كثافة يوماً بعد يوم تؤكد بعض ما قاله الحكماء في مقرراتهم السرية تلك، وكأنها ـ أي الوقائع ـ تجيء بمثابة انطباق هندسي باهر بين المقولة وبين التنفيذ.

ليس هذا مجال الحديث عن «البروتوكولات» التي أُشبعت بحثاً وتحليلاً منذ ظهورها وحتى الآن. ولكني أحب أن أقف، لحظات، عند واقعة تلفت نظر من يتابع مذكرات الشاعر التشيلي المعروف؛ «بابلو نيرودا».

يقول الرجل: «لقد تعرفت في الباخرة ـ المبحرة إلى الشرق الأقصى ـ على فتاة يهودية تدعى «كروزي» شقراء، سمينة شيئاً ما.. قالت لي: إن لها منصباً جيداً في باتافيا.. اقتربت منها في الحفلة الأخيرة للرحلة البحرية، بين كأس وكأس كانت تجرني للرقص. في هذه الليلة الأخيرة قررنا أن

نمارس الحب في غرفتي بشكل ودي. . اعترفت لي «كروزي» من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في باتافيا. كان ثمة منظمة فلندعها دولية (!) كانت مهمتها أن تشبك فتيات أوربيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة. بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين «مهراجا» أو أمير من سيام أو تاجر صيني غني، فقررت اختيار هذا الأخير لكونه شاباً وديعاً. . »[١].

وفجأة تذكرت بعض مقالات البروتوكولات: «من المسيحيين ـ يقول البروتوكول الأول ـ أناس قد أضلتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالمجون المبكر الذي أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماناتنا في البيوت الغنية ومن إليهم، ونساؤنا في أماكن لهوهم، وإليهن أضيف من يسمين «نساء المجتمع» والراغبات من زملائهم في الفساد والترف»[٢].

«اليوم ـ يقول البروتوكول العاشر ـ سأشرع في تكرار ما ذكر من قبل، وأرجو منكم جميعاً أن تتذكروا أنَّ الحكومات والأمم تقنع في السياسة بالجانب المبهرج الزائف من كل شيء، نعم، فكيف يتاح لهم الوقت لكي يختبروا بواطن الأمور في حين أن نوابهم الممثلين لهم لا يفكرون إلَّا في الملذات»؟[٣].

«ولكي نصل إلى هذه النتائج ـ يقول البروتوكول العاشر نفسه ـ سنتدبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة. . أو صفقة سرية مريبة. . إنَّ رئيساً من هذا النوع سيكون منفذاً وفيّاً لأغراضنا؛ لأنه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذي

(١) ص ١٥٠ من الكتاب المذكور، ترجمة محمود صبيح، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.
(٢) ص ١١٧ - ١١٨ من الطبعة الرابعة، ترجمة محمد خليفة التونسي. بشيء من التصرف.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤٨.

يمتلك دائماً الرجل الذي وصل إلى السلطة، والذي يتلهَّف على أن يستبقي امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع»[١].

إذن، فإن الأمر ليس كلاماً يقال ولا حلماً أو خيالاً.. إننا نلتقي ـ فيما يحكيه لنا الشاعر التشيلي ـ بكروزي «التي قالت بأن لها منصباً جيداً في باتافيا»، ونلتقي بمنظمة دولية «كانت مهمتها؛ أن تشبك فتيات أوربيات في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة».

والنتيجة بعد ذلك معروفة، تفسرها وتزيدها إيضاحاً المقاطع التي مرت بنا قبل لحظات.

ويقيناً فإن «كروزي» ليست وحدها، والمنظمة الدولية الأوربية ليست وحدها كذلك... فهذه وتلك مما اكتشفه بالصدفة، الشاعر التشيلي في عشرينات هذا القرن[٢]، فأمَّا ما لم يكتشفه فهو مئات من «كروزي» وعشرات من منظمات القوادة العالمية ذات المستوى العالي... إذا صح التعبير أن المسألة ليست حدثاً عابراً، ولكنها ظاهرة لعبت ولا تزال دورها الخطير في سياسات الدول والحكومات.

تُرى.. أبمقدور قوة في الأرض أن تخترق أخلاق المسلم المحصَّنة بالإيمان العميق لكي تسوقه إلى هذا المصير المفجع فتجعله بالملذَّة وبالخوف من الفضيحة، أداةً رخيصة بأيدي المنظمات الدولية؟ ومن أجل أن تمضي «كروزي» اليهودية إلى هدفها، وتجد المنظمة الدولية الطريق معبداً أمام عمليات الاصطياد اليومي، كان لابد من تدمير حاجز القيم الخلقية وإزاحة ترسانة الإيمان.. وذلك ما تفسره وتؤكده بروتوكولات أخرى يعرفها الجميع...

---

(١) ص ١٥٣ من الطبعة الرابعة، ترجمة محمد خليفة التونسي بشيء من التصرف.
(٢) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

الظاهرة الأبدية

للماديين وأنصاف المؤمنين تفاسير عديدة للظاهرة الدينية، يتحول أحدهم من إحداها إلى الأخرى حيثما شعر أن فيها خللاً ما، أو ثغرة واسعة قد تجعل التفسير يرتطم مع أبسط البداهات العقلية فضلاً عن الروحية، حتى إذا وجد تفسيره الجديد لا يحظى بالإقناع الكامل هو الآخر تحوَّل عنه إلى غيره.

وهكذا قد تستمر رحلة التفسير للظاهرة الدينية العمر كله، وقد ينتهي الأمر ببعض هؤلاء إلى موقف نقيض تماماً للمنطلق الذي صدروا عنه، فيتحولون إلى (التديُّن) بعد أن أدركوا خطل ما كانوا فيه، وسخف كل المحاولات البشرية الوضعية القاصرة لتفسير ظاهرة تفوق قدرة العقل البشري نفسه، وتتأبّى على معطيات الحس القريب.

يقولون: إن التدين هو نوع من تشبث الإنسان بالخرافة امتداداً لجهله بسنن الحياة وقوانين العالم.. ويقولون: إنه محاولة ساذجة يجابه بها الإنسان الضعيف القوى التي تفوقه وتهدد مصيره؛ فيتعبدها ويخضع لها درءاً لعقابها الذي لا يدري كيف وأيان ينزل على رأسه؟! ويقولون إنه تعبير عن حالات نفسية معينة يزول بزوالها.. ويقولون: إنه انعكاس طبقي لتطمين مصالح طبقة ما وتمكينها من مجابهة خصومها... ويقولون... ويقولون...

وأكثر هذه المقولات اعتدالاً، وبعداً عن الشطط، تلك التي ترى الدين تعبيراً عن نزوع الإنسان المستمر لفهم الكون، وتحقيق نوع من الوفاق بينه وبين العالم الذي يحيا فيه.

لكن هذه المقولة على اعتدالها الظاهر لا تعدو أن تكون كلمة حق يُراد بها باطل.. خطأ مقصوداً في نهاية التحليل يسعى لحصر الظاهرة في نطاق وضعي، ويطرحها كما لو كانت سعياً بشرياً صِرفاً يقوم به الإنسان من الداخل، من نسيج تركيبه وتَشوفه ومطامحه لصياغة حالة دينية يتحقق من خلالها بالإيمان، والقناعة والاستقرار.

وهذا بطبيعة الحال موقف يناقض ابتداء التحليل الذي جاءت به الأديان السماوية.. رؤية يقف على طرف التضاد الكامل مع القول بأن الدين علم فوقي يقيني يتنزل بين حقبة وأخرى لكي يعيد الإنسان إلى مساره الصحيح في مسالك العالم والكون والحياة.

علم فوقي يجيء من الله سبحانه، ويتلقّاه الإنسان هبة عُلْوية، كاملة الصدق، وليس له إزاءها أن يزيد أو ينقص، أو أن يغيِّر ويبدِّل ما دام أنه قَبِلَهُ منذ اللحظة الأولى، برنامج عمل إلٰهي لم يكن بمقدور الإنسان أن يتمسَّك بالصراط ويمضي إلى هدفه على الخط المستقيم إلا به ومن خلاله.

نعم لقد حدثت الزيادة والنقص، وتم التغيير والتبديل على كثير من الأديان المنزلة من السماء، لكن هذا الفعل «الإضافي» البشري القاصر ما عمل سوى أن غطّى على جوهر تلك الأديان بطبقة من الرين والتراب، ما فعل سوى أنه قام بتزييف روحها، وتضييع شخصيتها المتفرِّدة، وتحويلها إلى حشد من الضلالات والأوهام.

وثمة فرق كبير بين هذا التزييف الذي كاد أن يأتي على العديد من الديانات السماوية، وينحرف بها صوب وجهة مغايرة تماماً لمسارها الأصيل، وبين المدى العقلي الواسع الذي تتركه هذه الأديان للإنسان المؤمن كي يُعْمِلَ جهده الخاص وقدراته الذاتية من أجل تنظيم حياته على ضوء مؤشِّرات الدين وخطوطه الكبرى المنزلة أساساً من السماء، والتي ليس لأحد الحق مطلقاً في أنْ يغير فيها ويبدل أو يزيد وينقص..

تنظيم الحياة على ضوء المعطيات الدينية وليس من خلال تزييف هذه المعطيات وإضافة أجسام وضعية غريبة في تركيبها.

إن الإسلام الذي جاء لكي يُصَدِّقَ ما سبقه من أديان، ويهيمن عليها، الإسلام الذي تنزَّل لكي يعيد الألَقَ، والوضوح، ويكشف عن الشخصية الدينية عَبْر مسارها الزمني الطويل الذي عبثت به رياح الأهواء البشرية والمصالح والظنون، الإسلام يؤكد هذه المرة تلو المرة حتى ليغدو بديهة من بديهيات الحس والوجدان المُسْلِمَيْن..

فليس الدين ـ إذن ـ سوى علم لدني لم يكن بمقدور أحد من الناس أن يصنعه على هواه، أو يفصله على قَدِّ مصالحه النفسية أو الاجتماعية.

وإذا كان ثمة ما في الأديان ما يوحي بأنها تعكس قدراً من التشبُّث بالخرافة، أو تسعى لتحقيق قدر من الأمن الذاتي على حساب الحقائق، وإذا حدث وأن عَبَّرَ هذا الدين أو ذاك عن حالة نفسية أو مصلحة طبقية، فما ذلك لأن الدين نفسه يريد هذا أو يتوخَّاه ابتداء، وإنما لأن الأهواء البشرية نفسها سعت لتحويل الدين عن مهمته الحقيقية، وزيَّفت ـ لهذا الغرض أو ذاك ـ أهدافه الكبرى.

وهذا شيء والقول بأن التدين نفسه ظاهرة عرضية في مسار التاريخ البشري، وأنه انعكاس لحالات نسبية موقوتة وتراكمات زمنية عابرة، شيء آخر تماماً.

إن الدين ظلَّ، وسيظلُّ، تلك الظاهرة الأبدية التي تحمل استمرارها وديمومتها في مجابهة كل الأوضاع والأحوال مهما تبدلت وتغيرت.

بل إنه الظاهرة (التاريخية) الوحيدة التي قدرت على فرض ثقلها وحضورها في الوقت الذي تغيرت وتبدلت وغابت مذاهب ونظريات وتفاسير وأوضاع..

أليس مايحدث في بعض الدول المادية، مثل بولندا، من توجُّه ديني جارف، بعد حوالي نصف القرن[١] من المحاولات المرسومة لقتل الظاهرة، دليلاً منظوراً، ومقنعاً، لما نقول؟!




(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

مغزى إسلام غارودي

منذ أكثر من عام تناقلت الصحف نبأ إعلان المفكر الفرنسي الشهير «روجيه غارودي» إسلامه!

لم يكن حدثاً عادياً والحق يقال، فغارودي عقل كبير متنوع الثقافة عميقها.. ليس هذا فحسب، ولكنه بتحركه المعروف عبر ربع القرن الأخير[١]، كان يمثل «تقليداً» ثقافياً على الساحة الغربية، أو بعبارة أخرى «ظاهرة» لم يكن هو سوى واحد من نماذجها الكبيرة.

ففيما بعد الحربين العالميتين على وجه التقريب كان التقليد السائد هو توجه العقل الغربي المبدع، القلق، الباحث عن اليقين، إلى الماركسية.

ومنذ بدايات الحرب، وطيلة العقود التالية، بدأت عملية الارتداد بعد أن تبين لهذا العقل أن الماركسية لا يمكن أن تمنحه اليقين المنشود. وكلنا نعرف رحلة رجال من أمثال «أندريه جيد» و«آرثر كوستلر» و«ريتشارد رايت» و«اكناز سيلوني» و«ستيفن سبندر» و«لويس فيشر»... وغيرهم ممن انتموا للماركسية فكراً أو تنظيماً، ثم ما لبثوا أن ارتدوا عنها، أو بعبارة أخرى عجزت هي عن أن تلبي طموحهم للتحقق باليقين المرتجى.

فبعضهم عاد إلى مواقع الفكر الليبرالي المهتري المُتْرَعِ بالتناقضات، وبعضهم الآخر ظل يحلم بماركسية من نوع جديد فوجد نفسه يدلف إلى عالم اليوتوبيا والخيال الفكري الحالم مرة أخرى..

(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

وفئة ثالثة ظلت تعاني القلق والاضطراب، وتواصل سعيها من أجل العقيدة التي تطفئ ظمأها الملح في عالم قَفْرٍ غدا بالنسبة إليها أشبه بالصحراء التي لا أول لها ولا آخر.

فأما «غارودي» فقد قَدِرَ على اجتياز المحنة، وتحقق باليقين المنشود، وكانت كتاباته منذ «منعطف الاشتراكية الكبير» تومض بمصير متفرد؛ تعود الروح فيه لكي تعانق الجسد الذي يختنق يأساً وإلحاداً فتبعث فيه الحياة والأمل من جديد.

من هنا يكسب إسلام «غارودي» أهميته من بين عشرات، بل مئات بل ألوف يعلنون إسلامهم كل يوم في مشارق الأرض ومغاربها.

أتُراه بدء تقليد جديد ستشهده العقود القادمة من الزمن؟ وهل أقدر من (الإسلام) على منح الجواب للعقول الكبيرة التي لم يكن بمقدور المذاهب الوضعية أن تمنحها ما تريد؟ وها هي العقيدة المنزّلة من عند الله الذي يعلم من خلق، والذي هو سبحانه أدرى بخلقه، تحقق الاستجابة وتقود الحيارى إلى المصير المتوحِّد الذي يتوقون إليه..

لقد كان الإسلام دائماً قديراً على كسب أُناس من مستويات حضارية متقدمة إلى صفه، بل إن هذا التقدم الحضاري والنضج الفكري لهو واحد من العوامل التي تدفع المثقف إلى إدراك أعمق لميزة هذا الدين، وتفرده وقدرته على الاستجابة لمطالب الإنسان الحديث.

وإنها لمعادلة واضحة الأبعاد، متكاملة الأطراف، أنْ يملك هذا الدين القدرة على الكسب في كل زمان ومكان، وأنْ يلتقي مع مطالب الإنسان وأشواقه وحاجاته الأصيلة، حيثما كان هذا الإنسان، وأنْ يحمل قدرته على الحركة والامتداد في قرن تاسع عشر أو قرن عشرين.

وإذا كان الفارق كبيراً حقاً ـ في المستوى الحضاري ـ مابين الإفريقي الذي انتمى للإسلام في القرنين الماضيين، وبين الأوربي أو الأمريكي أو الياباني الذي ينتمي إليه في القرن العشرين، فإن ثمة قاسماً مشتركاً أعظم تذوب معه الفوارق الحضارية والجغرافية والجنسية، بل تذوب معه حواجز الزمان والمكان، ذلك هو إنسانية الإنسان، ولقد كان الإسلام وسيظل الصيغة الوحيدة للتعامل مع هذه «الإنسانية»، ليس من قبيل الكلام الذي يقال، ولكنها التجربة المعيشة التي شهدتها وتشهدها، وستشهدها أقطار العالم الأربعة. .

فليس بِدعاً من الأمر أنْ ينتمي عقل كبير كالمفكر الفرنسي المعاصر (غارودي) إلى هذا الدين، الذي ظل وسيظل يتميز بقدرته الأبدية على الاستجابة لمطالب الإنسان في القرن السابع الميلادي أو القرن السبعين!




حين تغدو الفيزياء تَلاوةً وذكراً

هناك في طبقة أعمق من المعرفة أو الثقافة البشرية التي يحظى بها ويتألَّق عدد من المفكرين حيث يحدث ـ أحياناً ـ وأنْ يلتقي العلم بالمنطق بالإيمان بالفلسفة وفق نسب موزونة، متداخلة، فتكون كل كلمة تقال أو عبارة تكتب، ويكون كل حديث يروى أو كتاب يؤلف، علماً ومنطقاً وفلسفة وإيماناً. . . ويكون اللقاء الفذ بين المعادلة الرياضية والقانون الطبيعي والتعليل العقلي والتصور الذهني والنزوع الروحي. .

ويكون التعاشق، المتفرد، بين العقل والقلب والروح والوجدان. .

ويكون التقابل المؤثر، الفاعل، بين الله والإنسان. .

هناك في تلك الطبقة العميقة التي لا يسبر غورها إلّا العقول الكبيرة التي تتجاوز خداع الحواس، وتتأبَّى على الأسْر في حيِّز المنظور والملموس. . العقول الكبيرة التي تعرف جيداً أنَّ «المادة» لا تشكل جداراً نهائياً يصعب اقتحامه أو يستحيل، وتدرك تماماً أنَّ وراء الأسوار القائمة عالم وموجودات وحقائق لا تقل ثقلاً وحضوراً عما يتشكل ويتحرك عند أسفل الأسوار، مما تراه الحواس، إنْ لم تَفُقْها حضوراً وديمومة وفاعلية وتأثيراً. .

هناك في تلك الطبقة العميقة من المعرفة البشرية المستنيرة الكاملة يكمن ما يمكن اعتباره «الحكمة» العليا، أي: حصيلة الجهد البشري في ميدان البحث عن الحق. . خلاصته المكثفة وجوهره المنتقى. .

حكمة.. لأن الحكيم يمارس من خلالها جمعاً لا تفريقاً، وتوحداً لا تشتتاً، وتوافقاً لا تبعثراً، وشمولاً لا تجزؤاً...

ولأن الحكيم يمتلك اللغة التي يستطيع بمفرداتها المتألقة أنْ يتعامل مع كتلة العالم المادية ونواميسها وسننها، كما يخاطب في الوقت نفسه وبالمفردات ذاتها الجان والحيوان والملائكة والشياطين..

ولأنه يعرف كيف يفجر ليس طاقات الإنسان والطبيعة، وإنما طاقاته الذاتية المذخورة. فيحظى بما يبدو للوهلة الأولى عجائب ومعجزات وأسراراً..

إنَّ القرآن الكريم يقولها بصراحة: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].. فمن خلال المنظور القرآني القادم من عند الله العالِم، المدبر، الخلّاق، القدير، تبدو الحكمة قمة المعرفة، ويظهر الحكيم كما لو كان بطل عصره، لأنه المفكر المؤمن.. الفيلسوف والمتصوف.. الرياضي والمتعبد.. لأنه الرجل الكامل الذي تعبر تجربته عن صيغة الوفاق المرتجى بين الإنسان وبين العالم والكون، وهو الأمر الذي جاءت الأديان لكي تجعله أمراً مشهوداً في مجرى الحياة.

والرسول الكريم ﷺ يقولها بوضوح: (الحكمة ضالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحَقُّ بها)... ليست هذه المفردة أو تلك، ولكنها كل المفردات محصلة العلم الشمولي الذي تكون فيه الكلمةِ رقماً رياضياً وتبتلاً ودعاءً وذكراً..

إن المسلم، انطلاقاً من البيئة الثقافية التي درج في أحضانها.. بيئة القرآن الكريم والحديث الشريف، والمعطيات التي تمخضت عنهما في الزمان والمكان، لا يحتمل ـ إن على مستوى التحليل العقلي أو الإحساس

الوجداني ـ مأساة التفريق والثنائية هذه بين معطيات المعرفة. . لا يحتمل أن يكون العقل نقيض الإيمان، أو أنْ يكون الجسد نقيض الروح، أو أنْ يكون المنطق نقيض الدين، أو أنْ تكون الفلسفة سلاحاً بوجه التقرب إلى الله!

إن المسلم، عقلاً، وروحاً، ووجداناً يمتلك قدرة ذاتية عجيبة على تحقيق التوحُّد، والاندغام، والتوافق بين هذه التكوينات المعرفية ذات المستويات المختلفة، والتي حَوَّلها الرجل الغربي، ابن البيئة المادية، أو العلمانية في أحسن الأحوال، إلى أشتات وتفاريق، وأجَّج بينها الصراع والاقتتال.

واليوم يشهد التعامل الفيزيائي مع المادة، والتوغل المختبري في تركيب الذرة، ومحاولة السيطرة على كنه الطاقة، والحركة، يشهد هذا كله أمراً عجباً. . .

لقد انهارت الأسوار وتساقط الجدار الصلب الذي اتكأ عليه العقل الغربي طويلاً، وأدار ظهره للدين والغيب والماورائيات كافة. . أنهار وتفتتت حجارته المنظورة، وطينه اللزج الهش اللين، فإذا بالتركيب المادي نفسه يقود إلى الغيب!! أو إلى ما يمكن اعتباره مدخلاً للغيب على أقل تقدير.

وإذا بالمعادلات الرياضية والفيزيائية تستحيل تعبداً وتلاوة وتسبيحاً وذكراً..

وإذا بالذرات نفسها تعلن بلسان الحال عن تسبيحها للخالق المبدع، المدبر سبحانه وتعالى. .

وإذا بفلسفة العلم التي هي حصيلة معطياته المستجدة، وقانونه المكثف، وتفسيره المركز، تعلن بوضوح لا تَعْلَقُ به ذرة من غبار أننا أمام عصر

سيعود فيه العلم لكي يرتمي في أحضان الدين، بعد رحلة عذاب ونصب دامت القرون الطوال.

ولن يكون بعد اليوم سوى العقل المتدين أو الدين المتعقل، فليس ثمة ـ بعد ـ ذلك الخصام والاقتتال بين تيارات المعرفة وطبقاتها.. ليس سوى التصالح والوئام..

وتتألق «الحكمة» مرة أخرى لكي تنير سبل العالم للمدلجين، ويكون «الخير الكثير» الذي بشرت به كلمات الله!!




الشاهد المتألق

الأدلة كثيرة.. والحقائق والممارسات التي تشع ضوءاً حتى ليكاد تألقها يسلب الأبصار أكثر، والبديهيات أكثر بكثير.. بديهيات في الفكر وأخرى في السلوك اليومي المنظور وفي حشود المفردات التي تشكل أخلاقية الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولكن أين العقول التي تفقه.. والعيون التي ترى.. والقلوب التي تؤمن فتطمئن؟!

ثلاث وعشرون سنة ورسول الله ﷺ يغادر فراشه في جوف الليل لكي يؤدي صلوات كانت تتورَّم لها قدماه، وتتقرّح الأجفان، ويكاد الجسد يئن نصباً وإعياءً..

ثلاث وعشرون سنة ورسول الله ﷺ ينهض من فراشه حتى والبرد يلسعه في ليالي الشتاء الجليدية.. حتى ونداء النوم يدعوه لكي يرتاح قليلاً من عناء نهار ليس كنهار الناس العاديين.

لماذا؟ ولمن؟ وَعَلامَ هذا العناء وهذا الالتزام الصارم وهذه الممارسة التي لم يتنازل عن أدائها يوماً واحداً فقط على مدى ثلاث وعشرين سنة هي عمر الرسالة والرسول عليه أفضل الصلاة وأزكاها.. وأطيبها؟!

وما كان ينام وحده لكي يتسلل الشك الشيطاني إلى النفوس المريضة فتستسلم له وتقول: ربما؟ من يدري؟ لعله صلى يوماً وتجاوز أياماً؟

لم يكن ينام وحده.. ومعنى هذا أن ممارسة كهذه غدت أمراً تأريخياً مُسَلَّماً به.. فمن خلال (شهود) يومي لنسوته ـ أولاً ـ حيث كان يتبتل في داره، ومن خلال شهود يومي أكثر اتساعاً لصحابته الكرام الذين ماتخلى عن إمامتهم في صلاة الفجر يوماً، تغدو المسألة يقيناً يكتسح كل وسوسة، وشهادة منظورة تفرض حضورها على الملاحدة قبل المؤمنين..

ومرة أخرى.. لماذا؟ ولمن؟ وعَلامَ هذا العناء؟!

وحاشا لمؤمن أن يتوجه بسؤال كهذا لنفسه أو للآخرين.. وإنه لأمر بديهي كبديهية الإيمان نفسها، أن ينهض الإنسان المسلم في جوف كل ليل ملبياً نداء الله، منفذاً واحدة من الصلوات الخمس التي كتب الله مواقيتها على المؤمنين، فكيف بالرسول عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ولكنه سؤال نقذف به وجوه المتشككين بنبوة النبي ﷺ، الموسوسة صدورهم بصدق رسالة الرسول..

ليس سؤالاً في حقيقة الأمر، ولكنه تحدٍّ يحمل واحدة من أشد الحقائق ثقلاً وحضوراً لكي يقول للناس: ها هي ذي، مفردة واقعة تؤكد صدق محمد بن عبد الله، مع نفسه ومع الناس، وقبل هذا وذاك مع الله سبحانه الذي لم يكن بصلواته الليلية الصعبة تلك يلبي أمره فحسب، ولكنه يتجاوز هذا إلى التعبير عن حبه وشكره وعرفانه.

تُرى.. كم من أمثال هذه المفردة المتألقة كضوء الشمس، الواقعة كحقيقة الحياة والموت، المؤكدة كما لم تتأكدِ ممارسة من قبل، شهدتها حياة الرسول ﷺ؟

كثيرة جداً، بحيث إنها بمجموعها تشكِّل سلوكاً متناغماً لم يتعرض يوماً لنشاز، ولم يضعف خفقانه حتى اللحظات الأخيرة..

كثيرة جداً، وإنَّ أيةً منها لكفيلة بأن تبلغ بالإنسان حافة النصب وتدفعه

إلى طلب الراحة بشيء من التفلت وبشيء من التساهل بنوع من اللااكترات الذي قد يتطلبه الجسد والعقل والجملة العصبية بين الحين والحين.

ولكن رسول الله ﷺ مضى ثلاثةً وعشرين عاماً يواصل التزامه ليلاً ونهاراً.. لم يتساهل ولم يرتَح لحظة واحدة.. مضى لكي يؤدي المطالب الصعبة ويضرب بسلوكه النبوي مثلاً للذين يعايشونه، ولكل القادمين فيما بعد علهم ينفذون عُشْر ماكان عليه الصلاة والسلام ينفذ..

ومن يدري، فلعله كان يجد راحته في هذا الكدح الطويل، ويتحقق بالتوازن الصعب إزاء ربه الذي منحه الأمانة الثقيلة التي أبَتِ السماوات والأرض والجبال أنْ يحملنها وأشفقن منها ومن يدري؟

ولكن السؤال المتحدي يظل دائماً قائماً، تقذف به وجوه قوم يلتقي بهم المرء في كل زمان ومكان.. أولئك الذين يتسلى بهم الشيطان فيجعل متعتهم القصوى ممارسة الوساوس والشكوك.. هؤلاء هم المعنيون بالسؤال.. لماذا؟ ولمن؟ وعَلامَ؟! إن لم يكن هناك إلٰه واحد يبعث نبيه للناس، أكان محمد بن عبد الله يلتزم بممارسة هذا الجهد المضني على مدى عمره الذي قضاه قائداً وزعيماً؟ حيث كان يتحتم بمنطق التشكيك نفسه أن ينهل من الطيبات، وأن يستغلّ ـ وحاشاه ـ مركزه هذا لكي يسعد ويتنعم ويرتاح؟ أكان يفرض ـ أساساً ـ هذه الصلاة الصعبة بين الصلوات على نفسه وأمته؟!

بلى إنها النبوة الحقة.. وإنها مطالب التقابل الكبير بين الله سبحانه وبين مبعوثه بالصدق المطلق؛ لكي يقود الناس، في كل زمان ومكان، إلى الصراط.

تلك الطاقة المهدورة

يمتلك المسلمون اليوم طاقات كبيرة وقدرات فاعلة لاتتوفر لغيرهم من الأمم، ولكنهم لا يفيدون منها، لا في حدودها القصوى، ولا المتاحة، ولا حتى في حدودها الدنيا. .

إنهم ـ للأسف ـ يمارسون إزاءها ما يمكن تسميته هدر الطاقة، ويبدو أنه ليس ثمة أمة في العصر الحديث أبرع في هدر طاقاتها من الأمة الإسلامية وبضمنها العربية بطبيعة الحال.

ليس هنا مجال البحث عن الأسباب فهي أوضح من أن يُشَارَ إليها، كما أنه ليس هنا مجال استعراض الطاقات المهدورة؛ فهي أكثر من أن تعد وتحصى. ولكننا نقف وقفة سريعة عند واحدة فحسب من ممارسات الهدر، كاد المسلمون بالإلف والاعتياد أن ينسوها تماماً، تلك هي المنابر التي تُلقى عليها خطب الجمعة، مرة كل أسبوع، في مشارق الأرض ومغاربها.

آلاف المنابر وآلاف الخطب الأسبوعية وملايين المستمعين، والحصاد في معظم الحالات لا شيء!!

بل إنه يتجاوز اللاشيء هذه صوب ردود الأفعال السلبية التي تعبِّر عن نفسها بالملل حيناً، وبالقرف حيناً آخر، وبالسخط حيناً ثالثاً، وبالهروب إلى النوم حيناً رابعاً، وبمزيد من الجهل بالأمور حيناً خامساً. .

بل إنه يتجاوز هذه السيئات كلها إلى ما هو أمرُّ وأنكى: التضليل الذي

يمارسه كثير من الخطباء في مواجهة المصلين من أجل أنْ يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً..

بل إنه يتجاوز هذا أيضاً إلى ما يمكن اعتباره خطيئة واضحة كالشمس؛ تردد بعض المصلين في التوجه إلى صلاة الجمعة لهذه الأسباب جميعاً رغم أنَّ هذه الصلاة فريضة لامجال فيها البتة لجدل أو نقاش.

لماذا هذا كله؟ في وقت كان يمكن أنْ **تتحول فيه المنابر إلى طاقة فاعلة** تمنح المسلمين عطاءً حسناً متجدداً لا ينضُب له معين؛ من العلم والمعرفة والوعي بمجريات الأمور وطبائع الأشياء!

يمكن أنْ يكون المنبر **أداة إعلامية للتحقق بالمزيد من الوعي** والإحاطة بأطراف الوقائع المتجددة على مدى العالم كله فيما يعد فهمه والإلمام به ضرورياً لكل مسلم ومسلمة، إنْ على مستوى السياسة، أو الاقتصاد، أو الاجتماع، أو العمران..

ويمكن أنْ يكون المنبر **أداة علمية، ثقافية**، لمنح جماهير المسلمين المزيد من المعرفة في شتى الميادين وفي مختلف الحقول، فيما ينمي المعطيات التي تلقوها عن المؤسسات التعليمية الأخرى، ويربطها بأصولها العقيدية الإيمانية كي لا تتحول إلى سلاح مضاد يشهر ضد العقيدة والإيمان!

ويمكن أن يكون المنبر **أداة تربوية** تمنح المسلمين، وبخاصة أولئك الذين يقفون على عتبات الوعي ولم يتجاوزوا بعد سني الصبا والشباب، المزيد من القيم التربوية وتدلهم على الطريق.

ويمكن أن يكون المنبر **أداة حركية يرسم الخطط التفصيلية**، ويحدِّد الأهداف المرحلية، ويحفز جماهير الناس من أجل بلوغها بالاختزال الزمني المطلوب.

ويمكن أنْ يكون المنبر ـ كذلك ـ **أداة موازنة لصالح الإسلام نفسه** بمواجهة أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم والتربية.. يمحّصُ ويناقش ويفند ويثبت ويربط معطيات هذه الأجهزة بما يجعلها لا تمر إلى عقل المسلم إلّا من خلال المنظور الإسلامي.

كثيرة جداً هي الإمكانات التي يمكن أن يتمخض عنها هذا التقليد الإسلامي الأصيل الذي أريد له أن يكون فاعلاً، مؤثراً، حاضراً في سدى الزمان ولحمة المكان.. أي بعبارة أخرى: معاصراً، بمعنى الكلمة..

إن المرء ليتساءل: لِمَ يحاول معظم الخطباء أن يهربوا من مواجهة مشاكل العصر وتحدياته إلى موضوعات عفا عليها الزمن، وأصبحت جزءاً من التأريخ؟ لِمَ يجبنون عن الدخول في حوار مثمر مع معطيات الساعة المتجددة لكي يقولوا فيها كلمتهم الأخيرة، ويحيطوا جماهير المصلين علماً بكنهها وأبعادها؟!

ألا يتحتَّم أن تكون **خطبة الجمعة قناة تتفتح على الحياة** التي يحياها المسلم اليوم.. على ما يتخلق في ساحاتها وأروقتها.. على ما يصير في جنباتها؟!

ألا يتحتم أن **يتحوّلِ خطيب الجمعة إلى صوت إعلامي** ينقل للناس ما يجري على ساحة العالم مما يمس المسلمين من قرب ومن بعد.. بل إنه في زمن السرعة والاختزال والتواصل الجغرافي الخاطف، ليس ثمة ما لا يهمهم، ومن ثم وجب أن يكونوا على إلِمام به لكي يسيروا على بينة، ويعرفوا جيداً المسالك التي عليهم أنْ يجتازوا، والخرائط المعقدة التي ترسمها تحديات العصر والتي يضيع في شعابها من يتلقى الضوء والإشارة ساعة بساعة وأسبوعاً بأسبوع.

ويتساءل المرء كذلك: **لِمَ لايتحوّل الخطيب إلى معلم أو أستاذ** يجعل

من ساعة اللقاء محاضرة علمية منهجية مرسومة تعالج فيها مسألة ما.. قضية محددة من كافة جوانبها، وتشبع بحثاً وتحليلاً لكي يخرج المصلون وقد أضافوا إلى علمهم علماً؟!

ولماذا هذا الصراخ الذي يَصُكُّ الأسماع ويتلف الأعصاب فيما لا مبرر معه للصراخ؟! أمن الضروري أن تكون خطبة الجمعة صراخاً مستمراً حتى والخطيب يعالج مسائل لاتقتضي هذا الضجيج المثير أحياناً للقرف والاشمئزاز؟! ألا يمكن أن تخاطب جموع المصلين، في عصر الأدوات الصوتية المكبرة والموصلة بأسلوب هادئ، رصين، قد يحقق ما لا يحققه الصراخ؟!

أسئلة كثيرة تدور في ذهن المسلم، واعتراضات شتى تحيك في نفسه وهو يجد هذه الممارسة المؤثرة التي منحها الإسلام أتباعه تهدر على أيدي وألْسِنَةِ حشود الخطباء التقليديين، وقد تتحول إلى سلاح مضاد.. فلماذا؟!




الزكاة.. تلك الفريضة العجيبة

حتى عهد قريب كان كثير من الناس يتصورون أنَّ الزكاة ضريبة بسيطة لا تعدو أن تكون نسبة متواضعة على رأس المال قد لا تتمخَّض عن مبالغ ذات بال. بل إنَّ بعض الناس تصوروها مجرد تزكية أدبية للمال بغضِّ النظر عن حجم النتائج المتأتية عن دفعها.. تزكية أدبية ما دام أن الزكاة هي كالصوم والصلاة شعيرة إسلامية أقرب إلى الممارسات التعبدية الروحية منها إلى التشريع المالي أو التخطيط الاجتماعي.

بل إن بعض المفكرين الإسلاميين أنفسهم لم يجدوا فيها أكثر من (حدود دنيا) يتحتم أن يتجاوزها المسلم إلى مزيد من العطاء، والدولة المسلمة إلى مزيد من الأخذ.. إذ ماذا تعني نسبة الواحد إلى الأربعين في نهاية كل حول؟!

وما تلبث الأيام أن تمضي، وتكرّ السنون والعقود، ويتدفق الخير على مساحات شتى من عالم الإسلام؛ ثروات طبيعيَة، وموقعاً ممتازاً، وأنشطة اقتصادية، وذهباً وفضة وأموالاً. وما تلبث الأموال أنْ تتدفق على جيوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وإذا ببعض هؤلاء يحسبون النسبة المتواضعة تلك؛ فإذا بها تشكل لدى كل واحد منهم مئات الآلاف من الدنانير بل ملايينها، فكيف بهم جميعاً؟!

إنها ـ والحق يقال ـ مبالغ هائلة لم تدر بخلد إنسان قبل عقود قليلة فحسب.. هائلة بحق، ولن تكون الكلمة مجرد صيغة إنشائية هدفها التفخيم والتضخيم.. فماذا لو التزم جميع المالكين بدفع هذه الفريضة محسوبة بالضمير المسلم الذي يخشى الله على الفلس الواحد لا يوضع إلا في محله؟! ماذا لو التزمت السلطات الإسلامية في عصر الإحصاء، والتنظيم المالي، والهيمنة الإدارية على كل صغيرة وكبيرة.. عصر الحسابات الدقيقة والمؤسسات المتخصصة والضرائب، ماذا لو التزمت أخذها بالميزان القسط، من كل من استحقت عليه طواعية أو كرهاً؟! وماذا لو قامت أجهزة متخصصة، ومؤسسات متمكنة، في تحويل هذه الطاقة المالية الكبيرة إلى أداة للتنمية والاستثمار من أجل مزيد من الكسب للجهات التي بينها كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام من التي تستحق الزكاة؟!

نتائج كبيرة بكل تأكيد، إنْ على مستوى النشاط الاقتصادي للبلد المسلم أو على مستوى الكفاية، وتقليص الفوارق الاجتماعية ونشر العدل الذي يعض عليه الإسلام بالنواجذ.

ومن عجب أن هذه الفريضة يتحتم دفعها في نهاية كل حول بنسبتها الثابتة على الربح وعلى رأس المال نفسه. ويتساءل المرء: ماذا لو لم يشغَّل رأس المال عبر هذه السنة أو تلك؟ ماذا لو لم يستثمر أو يشارك في هذه الجهة أو تلك؟ والجواب هو: أنه لابد من دفع زكاته في نهاية الحول وبالنسبة الثابتة، واحد من أربعين.

ومعنى ذلك: أن أي رأس مال مهما كان حجمه، مقضيٌّ عليه بالتفتت والزوال في نهاية المدة المفروضة، إلَّا أنْ يُهْرَعَ فيرمي بثقله في مجرى

النشاط الاقتصادي، ويغادر عزلته، ويتجاوز خطيئة الاكتناز والتكديس، وحينذاك ستتحقق الميزة الأخرى؛ مزيد خير لصاحب المال، ولمستحقي زكاته، وللنشاط الاقتصادي للبلد، ثم لثروته القومية في نهاية المطاف.

وهكذا يتضح ـ بلغة الأرقام كما يقولون ـ كيف أنَّ هذه الفريضة التي كان يظن أنها تكليف بسيط يستهدف ما يمكن أنْ يعد صدقة أو إحساناً، إنَّما هي مشروع مالي مركب يسعى لتحقيق أكثر من هدف في وقت واحد، ويؤول إلى مزيد منفعة لكافة الأطراف.

إنَّ هذه الفريضة، شأنها شأن العديد من الممارسات والتنظيمات الإسلامية في سائر مناحي الحياة، كانت مثاراً للجدل والنقاش، وكثيراً ما أغمط حقها، ووضعت في غير مكانها الحقيقي، ثم ما لبثت الوقائع والمعطيات أن كشفت عن أبعادها الحقيقية وعرضتها للناس ممارسة فذة، وخطة مرسومة بدقة، وتنظيماً يتوخَّى خير الدنيا والآخرة ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ونتذكَّر ها هنا أيضاً كيف يكون الزمن، بما يتضمنه من كشف متواصل، ومن تراكم في الخبرة، عاملاً مساعداً على إبراز دقة الصياغة، وإعجازها وبراعتها بالنسبة لجوانب عديدة من الإسلام تأكيداً للآية الكريمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

هنا في دائرة التنظيم المالي، وهناك في دائرة التنظيم الاجتماعي، أو التربوي، أو التشريعي، أو أي من دوائر الفكر الإسلامي الأخرى..

وتحضرني هنا محاولة لصديق يتخصص في علم الإحصاء الاقتصادي في إحدى جامعات بريطانيا تستهدف اعتماد نظم هذا العلم وطرائقه من أجل القيام بتحليل إحصائي لفريضة الزكاة في شريحة زمنية ومكانية من عصرنا

الراهن. والمحاولة لم تستكمل أسبابها بعد ولم تعلن عن نتائجها، ولكن الرجل يأمل في أنْ يصل إلى ما يؤكد للناس، بالرقم، والمنحنى البياني، معجزة الزكاة..




ثغرات
في رداء المادية

أيهما أقرب إلى الصواب: أن نعامل الإنسان من خلال موقعه الإنساني، أم موقعه الاجتماعي المحدود كفرد في طبقة؟ وإذا كان أفراد بعض الطبقات يمارسون ظلماً واستغلالاً، فما ذنب الآخرين الذين ولدوا من غير اختيار في الطبقة نفسها، ولم يمارسوا، بل إنهم ـ ربما ـ قدموا لمجتمعهم وللبشرية أجلَّ الخدمات؟ أليس جل المخترعين ـ على سبيل المثال ـ ينحدرون من الطبقة البرجوازية، وربما الإقطاعية أو الأرستقراطية، التي صبت عليها الماركسية اللعنات؟

إن المنظور الماركسي من هذه الزاوية يقترب، بنزوعه الجبري وعدم إعطائه مكاناً واسعاً لحرية الإنسان واختياره، من المنظور الشوفيني الذي يتعامل مع الإنسان من خلال انتمائه العرقي الذي لم يكن له خيار فيه..

إن القرآن الكريم يقولها بصراحة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]... وسواء كانت (الأمة) طبقة أو عرقاً أم مزيجاً من الطبقات والأعراق، فإن أية جماعة تنتمي إلى هذه الطبقة أو تلك، وإلى هذا العرق أو ذاك، ليست مسؤولة ـ بالضرورة ـ عن أعمال المنتمين إليها كافة، لأن القرآن الكريم يعود لكي يضع التبعة النهائية على عاتق الفرد نفسه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]،

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسـراء: ١٣]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

وبهذا يتحقق التقابل بين الإنسان والحرية، ويكون الاختيار هو الحكم الفصل فيما يكون للإنسان أو يكون عليه..

أن تنتمي إلى هذه الطبقة، أو أن تكون فرداً في تلك السلالة، مسألة لاخيار لك فيها، ومن ثم يتحتم ألّا يُخْتم على مصيرك من خلال واقعة جبرية كهذه أو تلك.. والحكم العادل يتأتى حين ينصب على اختيار الإنسان وفعله الحر أياً كان موقعه الاجتماعي أو انتماؤه القومي.. ففي الساحتين نلتقي بالأخيار والأشرار، ونتعرف على حشود الصالحين والطالحين..

والتعميم هو الخطأ القاتل ليس للحقيقة وحدها ولكن لأقدار الناس وحقوقهم المشروعة في هذه الحياة..

إنَّ المنظور الطبقي الذي اعتمدته الماركسية ما يلبث أن يقع في خطيئة أخرى غير خطيئة التعميم، تلك هي التسطيح.. إن إلْحَاحَه على فكرة الطبقة يدفعه إلى تجاوز التفاوت النوعي للأفراد، سواء كانوا ضمن طبقة واحدة أو عدة طبقات، ويسوقه إلى تحويل الإنسان إلى رقم كغيره من الأرقام المصفوفة إلى جوار بعضها.

ومن خلال هذا التسطيح لا يضيع ذوو القدرات الخاصة والمواهب المتميزة فحسب، بل يضيع الإنسان نفسه بما أنه نسيج معقد متشابك من الطاقات الروحية والعقلية والوجدانية والجسدية، بما أنه طبقات متداخلة تبدأ بالقشرة الخارجية للإنسان وتتوغل نزولاً باتجاه الأعماق.

إن الماركسية بتأكيدها على التركيب الطبقي للمجتمع، أهملت في مقابل ذلك التركيب الطبقي للنفس البشرية، فضحَّت بهذه الحقيقة من أجل الطبقية

الاجتماعية، وأخذت تتعامل مع القشرة الخارجية للإنسان بعيداً عن طبقاته الأشد عُمقاً وتعقيداً.

وليس فقط «جارلس بيج» و«ماك آيفر» كعالمي اجتماع برجوازيين يقولان بأن «ماركس» مارس خطيئة تسطيح النفس البشرية بأكثر مما يجب، بل إننا نجد أديباً معروفاً كـ«ريتشارد رايت»، الزنجي المضطهد في مجتمع رأسمالي، انتمى إلى الشيوعية حيناً من الدهر، ثم ارتد عنها بعد اكتشافه العديد من العيوب والثغرات، نجده هو الآخر ينعى على الماركسية سلوكها الخاطئ هذا «لقد كان الشيوعيون ـ يقول الرجل ـ ينظرون إلى الجماهير وخبراتهم نظرة أبسط من الحقيقة بكثير؛ إنهم في محاولتهم تجنيد الجماهير قد ضلوا عن فهم حياة الجماهير، فكانوا ينظرون إلى الناس نظرة عامة مجردة أكثر مما ينبغي»[1].

ومن حيث أرادت الماركسية الدفاع عن مصالح الجماهير، سلكت طريقاً ملتوياً استهدف منحها لقمة الخبز، ولكنه سلبها شيئاً أغلى بكثير؛ تميزها الإنساني، وتركيبها النفسي الذي لا يكفي رغيف الخبز وحده، ولا أداة النقل وحدها، لإشباع حاجاته ومطامحه التي لا تحدها حدود..

التعميم والتسطيح.. ثغرتان من عشرات تخترق جسد الفكر الماركسي وتملؤه بالشروخ والتشققات..:

صحيح إنه ما من مجتمع في تاريخ البشرية، بما فيه المجتمع الشيوعي نفسه، يخلو من تميز طبقي، على الإطلاق، ولكن الإلحاح على فكرة الطبقية هذه، التشنج عليها واعتبارها مفتاح كل شيء، مع الاعتقاد بأنها بدء

(١) عن كتاب الصنم الذي هوى، لآرثر كستلر ورفاقه، ص ١٤٦، ترجمة فؤاد حمودة، الطبعة الثانية ـ بيروت، ١٩٧٠م.

الحياة والتأريخ البشريين ومنتهاهما، هو المنزلق الذي قاد الماركسية إلى العديد من الاستنتاجات الخاطئة.

ولقد كان التعميم والتسطيح اثنتين من تلك الاستنتاجات، لم تكونا في نهاية التحليل لصالح الإنسان.




تأثيرات السلوك

في حوار مع صديق عائد من الغرب طرح هذا السؤال: ما الذي يجعلهم ينفرون منا؟

لم نتطرَّق ـ بطبيعة الحال ـ للبعد المذهبي أو الديني، أو حتى التأريخي، فتلك مسائل أخرى قد لا يكون للغربي فيها أي مبرر موضوعي عادل على الإطلاق؛ اللهم إلَّا مبرر الحقد، والمصلحة، ورد الفعل، والانغلاق الديني، وسموم الأنشطة المضادة وبخاصة الصهيونية والمادية والتبشير.. وما شئنا من سلبيات قد تكون بالفعل الدافع وراء كراهية الغرب الصليبي والمادي للشرق المسلم.

إنما كان الحوار ينصبُّ على نقطة محددة، كنا نجد أنه في إطارها المحدد هذا قد يكون للغربي أن ينفر من الشرقي المسلم والعربي على وجه الخصوص، وهو أمر يعرفه جيداً معظم الدارسين هناك من طلبتنا أو الذاهبين إلى هناك من الأساتذة والمتطبيين والسياح.

بعضهم يحيله على الدوافع التي ألمحنا إليها قبل لحظات، فيحاول بذلك أن يتحايل على الأسباب الأكثر مباشرة وقُرباً، وبعضهم يحاول أن يتعامى عنه ولايكترث به رغم أنه واقع مشهود.. وفئة ثالثة أقرب إلى الموضوعية وأكثر إحساساً بضرورة تجاوز «الوضع السيِّئ» تسعى لوضع يدها على الأسباب للداء المستعصي.

جَرَّنا الحوار إلى تركيز المسألة بكلمتين فحسب؛ تأثيرات السلوك، فإن الشرقي المسلم، العربي على وجه الخصوص قلما يسعى، وهو يحيا لفترات قد تطول وقد تقصر في لندن أو أدنبرة أو أُكسفورد أو باريس أو ليون أو ميونيخ أو روما.. أو واشنطَون أو موسكو.. أو غيرها.. للتحقق بسلوك متحضر، مقبول ولا أقول متدين، لأن معظم الذاهبين إلى هناك ليسوا متدينين رغم أن الدين، هو في ناحية من نواحيه، الضمان الوحيد للسلوك المتحضر الموزون..

فبمفردات السلوك الجافي، غير المتحضِّر، يمارس أصحابنا هناك خطيئة فادحة بحق كل ماهو عربي مسلم أو شرقي.. إنهم، أو الغالبية منهم بعبارة أدق، يضربون مثلاً عملياً يؤكد للقوم، بالمنظور والملموس، مدى تخلفنا عنهم.. مدى جفائنا المتأصِّل في العروق، ويريهم الفارق الكبير بين المستوى الحضاري الذي بلغوه والمستوى المتدنِّي الذي يخيل إليهم بما يرونه من هذه المفردات السلوكية، أن الشرق المسلم، والعرب على وجه الخصوص يتخبَّطون فيه..

تحدثنا بألم عن كثير من الحالات السيئة وضربنا الأمثلة على العديد من المفردات، مارسها هذا الرجل أو ذاك، وقدمها للخصم وسيلة إعلام سيئة تتحول على أيديهم إلى سلاح مضاد، وتستقر في نفوسهم وعقولهم مزيد كراهية ونفور وازدراء..

ليس ثمة مبرر لطرح الشواهد، ولا أعتقد أن ذا عينين يخفى عليه ما يجري هناك على أيدي العديد من الدارسين والسائحين في عواصم الغرب.. في المتنزهات والشوارع والفنادق والأسواق المركزية والنوادي والمسارح والمقاهي والمباغي والأزقة والشوارع.. وحتى في الشقق وغرف المنام..

مفردات سلوكية سيئة، متدنية، جافية، تَحدَّث عنها الكثير من العائدين، أما الغربيون فلم يكتفوا بالحديث عنها، والتقزز منها، وإنما تجاوزوا ذلك - بنزعتهم البراغماتية المنفعية المعروفة - إلى استغلالها أدوات دعاية مضادة وابتزاز للأموال والأخلاق والعقول، بل إنهم تجاوزوا ذلك إلى نوع من الاستعباد والقنانة يفرضونها على أولئك الذي ارتضوا، بالشهوة الساقطة والسلوك المتدني، أن يغدوا أدوات بأيدي مراكز التوجيه الغربي، يدفعون بها إلى الشرق لكي تلعب دورها المرسوم ضد الأمة... والوطن... والعقيدة.

وتذكَّرنا بأسى، والحديث يَدْلِفُ بنا من مسألة لأخرى، كيف أن سلاح السلوك المنظور هذا كان بأيدينا يوماً ففتحنا به العالم، وكسبنا عقل الإنسان وقلبه، وخفقت راياتنا في كل مكان.. وكيف أنه يتحول اليوم إلى سلاح مضاد نشهره ضد أنفسنا فننحسر في خرائط العالم، ونزداد انكماشاً وتضاؤلاً.. ونُرغَم على أن ننزوي، وسط إحساس غامض بالدنية والمهانة، وأكثر من مُرَكَّب نقص تجاه كل مايتعلق بخصومنا أيّاً كان موقع هؤلاء الخصوم..

قلت لصديقي: لقد رأيت نماذج منهم وهم يتحدثون، بتباهٍ، عما فعلوه هناك مع هذه الألمانية أو تلك، وفي هذا البار أو ذاك، ووسط هذه المناسبة العائلية أو تلك.. لقد أصابني القرف والاشمئزاز وأنا أتمثل ممارستهم هناك.. شيء يثير الاحتقار حقاً، وهم أبناء بلدي، محسوبون على الأرض التي أنتمي إليها، فكيف بالغربيينَ «الغرباء»؟! كيف بالغربيين «الخصوم»؟ كيف بأعداء ديننا ووطننا إذا نظروا إلى هذه الممارسات الدنيئة الجافية، البعيدة عن مطالب التحضر فضلاً عن مطالب الأخلاق والدين؟ ماذا هم متصورون؟ وماذا سيبنى على تصورهم هذا من مواقف وأحكام وسياسات؟

الإيمان والمؤسسة

إن «الإيمان» لا يمثل ضرورة عقيدية فحسب، ولكنه يعد ضرورة «عملية» أيضاً إذا ما أُريد للحياة البشرية أن تمضي بيسر إلى أهدافها، وأن تتمكن من تحقيق مهمتها في الأرض.

ضرورة «عملية» على مستوى الفرد، والجماعة، والدولة، والحضارة البشرية. . .

ونحب أن نقف هنا قليلاً إزاء هذه الضرورة بالنسبة للدولة، لأن ما كتب وقيل عن الجوانب الأخرى قَدَّمَ من الأدلة والقناعات ما فيه الكفاية. . ويزيد. .

إن الإيمان يمنح المواطن الوازع للإنجاز، ويقظة الضمير، والإحساس الدائمي بالرقابة الإلٰهية على كل فعل وممارسة. . وهذه الميزات الثلاث تجيء بمثابة قوى فاعلة، وصمامات أمان، من أجل تسيير شؤون الدولة ومؤسساتها وأنشطتها بأكبر قدر ممكن من الدقة والإخلاص والإبداع، والانضباط الخلقي، والروح الإنسانية.

ولن يكون بمقدور أي بديل وضعي أن يعوض عن هذه الميزات؛ مهما كان ذلك البديل على قدر من النضج والدقة والاتساع. .

ورغم أننا نعيش عصر التقنية المتقدمة. . التقنية التي منحت الدول قدرات فائقة وإمكانيات فذة للرقابة، والانضباط، والتنظيم، والإنجاز، فإنه

لن يكون بمستطاعها أن تفعل عشر معشار ما تفعله الميزات التي يشكلها الإيمان في عقل الإنسان وحسه ووجدانه.

وما أكثر الموظفين والعمال والفنيين الذين لايقدمون جهدهم كاملاً خلال ساعات العمل، دون أن يكون بمقدور مدير أو مسؤول أو جهاز رقابة دقيق اكتشاف نسبة تجميد الطاقة أو هدرها عبر تلك الساعات، وما أكثر الموظفين والفنيين والعمال الذي لا يحسون بدافع مُلِحٍّ للإخلاص في عملهم أو إنجازه بالصيغة الأفضل، دون أن يكون بمقدور مدير أو مسؤول أو جهاز متطوّر اكتشاف هذا الدافع السلبي واستبداله بما يجعل المواطن مندفعاً لتحقيق الإتقان والإحسان فيما ينجزه من أعمال، وما ينفذه من مهام وواجبات.. وما أكثر الموظفين والفنيين والعمال الذين يجدون أنفسهم في مساحات واسعة من نشاطهم وممارساتهم، بعيدين عن الرقابة الخارجية، لا تمسهم عين ولا تسمعهم أذن، ولا يضبطهم جهاز، فينفلتون من المسؤولية، وقد يمارسون أعمالاً مضادة لإلحاق الأذى بمسيرة الدولة وأنشطتها.

وهكذا يجيء الإيمان لكي يصنع المعجزة؛ فيبعث المواطن الذي يمتلك الوازع والضمير والتقوى.. وتجد الدولة حشوداً من الموظفين والفنيين والعمال يسعون لتقديم جهدهم كاملاً عبر ساعات العمل، دونما هدر، أو تضييع، ويتفننون لتقديم أقصى ما يملكون من قدرة على الإتقان والإحسان، ويشعرون دوماً بأنَّ هناك من يرقبهم ويراهم في كل صغيرة وكبيرة، فيتحاشون سخطه بالأخطاء المقصودة أو التقصير، ويسعون لرضاه بمزيد من العمل والإتقان.

كثيرةٌ جداً **النتائج العملية المتمخضة عن دور الإيمان في تسيير عجلة** الدولة وتصريف شؤون مؤسساتها المختلفة، ونستطيع ها هنا أن نشير إلى بعضها فحسب، بينما هنالك الكثير.

إنه يحمي أموال الدولة وطاقاتها وقدراتها المادية من السرقة والابتزاز والتفريط.

ويحمي حقوق المواطنين من الإهمال أو الضياع، أو تحكيم المصالح والأهواء..

ويدفع الموظف إلى بذل الحد الأقصى من الجهد لتقديم أكبر قدر من العطاء، كما يدفعه أن يكون **مخلِصاً لعمله**، أميناً عليه، ساعياً لتقديمه بالحد الأقصى المستطاع من الإتقان والإبداع.

وهو فضلاً عن هذا وذاك **ينشئ تقاليد إنسانية في التعامل** بين كوادر الدولة الوظيفية وبين المواطنين؛ تحفظ كرامة الإنسان وتحميها من الامتهان أو الإذلال.

ومن أجل معرفة ثقل هذه المسألة فإن بمقدور أي امرئٍ أن يتذكر الخط الطويل من الموظفين الذين اضطُر للتعامل معهم عَبْر حياته من أجل إنجاز هذه القضية أو تلك..

إن قلة من هؤلاء سعت لأن تعينه على إنجاز مهمته بأكثر الأساليب نُبْلاً وشرفاً وإنسانية، ولكن الأكثرية الساحقة، بالعكس، سعت، لسبب، أو آخر، إلى عرقلة هذه المهمة واستخدام أكثر الأساليب استفزازاً ودناءة وبُعداً عن كرامة الإنسان..

لقد كان المواطن يخرج من كل عشر معارك، إذا جازت التسمية، منتصراً مرة واحدة، منهزماً، مطحوناً مرات ومرات..

قد يحظى ببغيته، وقد ينجز مهمته، ولكن بعد أن يخسر الكثير.. يقيناً..

تُرى لو كان الإيمان يملك حضوره وثقله في مجرى العلاقات الوظيفية، أكان يمكن أن تحدث هذه المأساة؟

باختصار شديد، فإن الإيمان يعين الدولة ليس فقط على تحقيق أهدافها بأكبر قدر من النجاح والتفوق، بل إنه يمكّنها ـ كذلك ـ من اختزال حيثيات الزمان والمكان، للوصول إلى الأهداف بأسرع وقت ممكن، ويتيح لها أن تستجيب لأصعب التحديات فتزداد قوة ومنعة وعطاء..

ولن يستطيع أحد ـ بعد هذا ـ أنْ ينكر دور الإيمان في نشاط الدولة أو المؤسسة، أو ينفي كونه ضرورة عملية تدخل في نسيج النشاط العام وتلعب دورها في النتائج المتحققة على أرض الواقع.

إنه ـ إذن ـ ليس ضرورة عقيدية فحسب، يقتضيها الوضع البشري في العالم، أو تحتمها الحقيقة الكونية التي تشير صباح مساء، بألف شاهد ودليل إلى حتمية الإيمان باعتباره الصيغة الأكثر صِدقاً، بل الصيغة الصادقة الوحيدة لعلاقة الإنسان بما يحيط به من حقائق وظواهر وموجودات.

ولكنه ضرورة عملية ـ كذلك ـ لَمَسْنا قبل لحظات جانباً من مردودها الكبير. ويعرف الإنسان كيف يكون إشهار السلاح بوجه الإيمان ووقفه عن الفعل والتحقق، أو حجبه عن العمل في واقع الحياة العامة، موقفاً خاطئاً من الأساس قد يحمل نزعة انتحارية، لأنه يتحرك ضد مصلحة الإنسان ومصلحة مؤسساته..

هذا على فرض التسليم بالدافع البريء لهذا الموقف.. ذلك أن معظم هذه المواقف التي تتصدى للإيمان، وتسعى إلى عرقلة حركته ووقف فاعليته، إنما تتعمد هذا لهدف مرسوم لا يجد المرء كبير صعوبة في تلمس أسبابه ودوافعه!!

وسيكون سعيداً

حدثني أحد أصدقائي الأدباء عن معاناته القاسية وهو يمارس الكتابة منذ أكثر من عشرين عاماً، وأن معاناته هذه لم تبلغ ما بلغته عبر السنتين الأخيرتين.

حاولت أن أُطمئنه بأن كل الذين يكتبون يعانون، وأنه عذابهم اليومي، ولكن النتائج الطيبة كثيراً ما تنسيهم إياه.

ابتسم بمرارة وهو يقول: لا ليس هذا!!

ـ ماذا تعني إذن؟

فبتنهدة عميقة انتزعها من أعماقه قال: الإحساس المرير باللاجدوى.. وواصل كلماته بالمرارة نفسها: لا تتصورني سأُخرج جُمَلاً وعبارات تقليدية عندما أتساءل: علام نكتب؟ ولمن؟ ولماذا؟ لأن هذه الأسئلة بالنسبة لي على الأقل أصبحت أشبه بالجمر الذي يكوي أصابعي ويصدني عن المضي في الكتابة.. إنني موقن الآن حتى أعمق طبقة في وجداني بأن ليس ثمة جدوى من الكتابة على الإطلاق.. فما الذي تنتظره من تأليف كتاب واحد أو عشرين كتاباً؟

لا شيء!! وهكذا تُراني منذ شهور وأنا لم أحاول أن أكتب سطراً واحداً!

كنت أعرف تماماً أنه لم يخرج بهذا التوقف عن دائرة العذاب فسألته: وهل تُحِسُّ الآن أنك سعيد؟ بعبارة أخرى: هل تحولت بالتوقف عن الكتابة

إلى حالة أفضل؟ إلى نوع من التوازن أو الامتلاء أو الإحساس بطعم الدنيا والأشياء؟

أجاب وهو يدرك تماماً ما الذي أقصده: أبداً.. فإن شبح اللاجدوى ظل جاثماً على صدري كما كان من قبل، وانضاف إليه ثقل آخر.. شبح ثانٍ لا يقل عنه إثارة للتعاسة والمرارة والشقاء.. إنه السأم..

ومنذ زمن بعيد وأنا أعاين صديقي هذا، حيث كنت أتردد عليه بين الحين والحين، يكتب فهو شقي، لايكتب فهو تعيس..يدخل في دوامة العمل لكي ينسى فلا يقدر.. يخرج إلى متاهة التبطل والفراغ فيزداد قلقاً وتأزماً وسأماً.

وها هو الآن يُصَعِّدُ إحساسه بلا جدوى الكتابة إلى دائرة أوسع تشمل وجوده بالكلية.. إنه الإحساس بلاجدوى الحياة.. وها هو الآن يقولها بصراحة: علام نحيا؟ ولم ولدنا؟ ولماذا نموت؟ بعد إذ بدأ من سؤاله المحدود ذاك: علام نكتب؟ وما هو الجزاء؟

والمسألة ـ بإيجاز شديد ـ ليست مشكلة معقدة مستعصية على الحل، ولا هي ـ كما حاول الغربيون أن يصوروا ـ معضلة فلسفية تكتب فيها الكتب وتصنف النظريات والفلسفات. إنها أوضح وأيسر وأبسط من ذلك بكثير.. وهذا الرجل الذي تحاصره اللاجدوى كواحد من عشرات، بل مئات وألوف، أراه أمامي بوضوح، ومن خلال تجربته المنظورة وسلوكه الملموس، عبر كل جزئيات حياته التي أعرفها جيداً، والتي أستطيع أن أضع يدي على سر مأساتها وأقول: هنا، دون أن أجدني مضطراً للرجوع إلى كتاب واحد أو فصل من كتاب حاول فيه المؤلفون الضائعون أن يحللوا الأزمة، وينظروها، ويضعوا لها المبادئ والغايات..

إن الرجل غير مؤمن بالله!

هذه هي المسألة باختصار.. ولقد قالها هو بنفسه، قالها أكثر من مرة، وعبَّر عنها في مياوماته اللحظة بعد اللحظة، وقال كذلك: إنه يتمنى أن يكون (مؤمناً) ولكنه لا يستطيع.

ومن يدري، فقد يجد الإيمان في يوم قريب أو بعيد كما وجده مئات من الذين بدؤوا الطريق ذاته، ودفعتهم المعاناة المبهظة إلى اللجوء إلى الله، وأصبحوا ممتلئين سعداء متوازنين.. واستمروا على العطاء، بعد إذ كان الإحساس باللاجدوى يسد عليهم الطريق ويكفهم عن العمل والسعي والإبداع.

إنها كلمة السر والمفتاح والإشارة الضوئية التي تمنح الإنسان القناعة والرضا واليقين، وتدفعه إلى العالم متحرراً، نشطاً، مبدعاً، وسعيداً.. تعطيه كذلك الخرائط الإلٰهية الدقيقة التي تبين له أين عليه أن يسير؟ وأين عليه أن يتوقف؟ وأية من الطرق يتحتم عليه أن يجتازها وصولاً إلى مصيره المتوحد الفريد؟

إن كل جزيئة من جزيئات الحياة الخاصة ستجد مغزاها في الإيمان، وكل سلوك مهما صغر أو كبر سيجد معناه في الإيمان.. وكل عطاء أو إنجاز أو إبداع سيجد هدفه في الإيمان.. وكل كلمة تكتب أو كتاب يؤلف سيجد جزاءه في الإيمان..

إن هذا الإيمان المتألق الذي يضيء حياة الإنسان ويمنحه الطريق، يعطيه في الوقت نفسه الإحساس المتين العميق بأنه ما من صغيرة أو كبيرة يمارسها، عن قصد، إلَّا وهي محسوبة بحساب.

إن الإيمان إذ يربط معطيات الإنسان بفكرة الثواب والأجر والآخرة، والخلود.. إنه إذ يضع الإنسان في تقابل مبدع مع الله جل وعلا.. إنما يمنحه الطمأنينة واليقين في أنه ما من شيء باطل في هذه الحياة، ما من

سعي ضائع أبداً.. وإنه مكتوب عليه أن يواصل العمل والعطاء، ليس من قبيل ملء الفراغ، وكسر جدار السأم وإثبات الوجود المحدود، ولكن لأنه كأنسان مؤمن يتحتم عليه أن يواصل السعي قبالة الله سبحانه.. أن يزرع الفسيلة المخضرة التي يحملها بيده حتى وهو يستمع إلى النفير الأخير.. إلى صُوْرِ يوم القيامة، كما علمه رسوله أن يكون!

أردت أن أقول له هذا، أن أُشعِرَهُ بأنني سعيد إذ أكتب، وأنه ما من كلمة أخطها بيميني إلَّا وأنا مسؤول عنها أمام الله، وهي بدورها محسوبة لي هنا وهناك، وأنه لم ينتبْني، لحظة، هذا الإحساس التعس باللاجدوى. على الإطلاق..

ولكنني ترددت وقلت في نفسي: مادام الرجل لم يمتلك بعد كلمة السر، لم يتسلم المفتاح، فلن تجديه ألفُ موعظة أو ألفُ تجربة.

ويقيناً فإنه سيعثر على الكلمة وسيجد المفتاح، **وسيكون سعيداً**.. فعلها قبله كثيرون وسيفعلها بعده كثيرون، ولن يضيع الله عباده المتخبطين في الظلمات!!




المنفيون من الجنة

وهذا نموذج آخر يتحرك في طريق معاكس تماماً، شأنه شأن كثيرين خاضوا التجربة نفسها...

أديب هو الآخر.. كتب العديد من القصائد ونشر العديد من الدواوين.. بدأ بالإيمان ولكنه ما لبث أن وجد نفسه ينحدر سريعاً صوب مواقع النفاق، فالكفر، فالإلحاد!

حاصره الكبت والمغريات، طاردته المرارات والإحباطات التي يعانيها المؤمنون في عالم لم يعد يأبه للإيمان.. فلم يقدر على المقاومة واستسلم بيسر وسهولة.. وانزلق إلى حيث يتوقع أن يجد بغيته. أن يتجاوز الحصار.. وأن تكف المتاعب عن ملاحقته.

تُرى هل قدر على تحقيق الهدف، وقبض ثمن التسيب والانفلات؟

أبداً، فها هو بحسه الشاعري العميق، وبوجدانه الذي لايكف عن الخفقان، وبأعصابه التي غدت لفرط حساسيتها أشبه بأسلاك الكهرباء.. هاهو ذا يدرك تماماً أن الحياة الدنيا أصبحت فرصته الوحيدة، وليس ثمة فرصة أخرى وراءها على الإطلاق.. وأن عليه أن يسرع فيما تبقى له من عمر، وفيما احتفظ به من طاقة وحيوية، لاهتبال الفرصة المحدودة، المنصرمة، قبل فوات الأوان..

وإذا كان ما تبقى قليلاً تافهاً.. مجرد سنوات فحسب وتحين الشيخوخة والذبول، وإذا كانت الطاقة المتاحة محدودة هي الأخرى، مهددة بين لحظة

وأخرى بالانحلال والتلاشي.. فإن الرجل ما لبث أن وجد نفسه في معادلة صعبة، بعبارة أخرى: في مصيدة وضع نفسه بإرادته فيها، ولم يعد يقدر على الخروج منها، بل لم يجرؤ على أن يقول لأحد من الناس: هات يدك لكي أخرج من الفخ..

وإنه ـ والحق يقال ـ فخ ذو أسنان كالأنياب الجارحة، تدخل في أعماق اللحم وتتوغل إلى نسيج الأعصاب، فتمزق الإنسان وتحيل حياته جحيماً!

أحايين.. كنت أراه، أو أستمع إليه، أو أقرأ له، أو أسمع عنه.. وكنت أجده في كل الأحوال يركض بسرعة تفوق طاقته من أجل وضع يده على هذه اللقمة أو تلك.. من أجل تطمين هذه الحاجة التافهة أو تلك.. من أجل نيل هذا المكسب الحقير أو ذاك..

يركض إلى حد اللهاث، فقد يصل حيناً وقد لا يصل أحياناً، ولكنه ما يلبث أن يعيد الكرة وأن يستأنف السباق المجنون بطاقة لا تقدر على تَحَمُّلِ جنون يستفزه زمن منصرم وعمر فان محدود...

ثم هو مع من يتسابق؟ مع أناس يفوقونه قدرة ويزيدون عليه طاقة ويصغرونه عُمراً.. مع أناس قد يكون أمامهم من الزمن فرصة أوسع بكثير من هذا الذي يدلف إلى الرجولة ويوشك أن يبلغ حافتها...

وهذا التقابل الذي ليس في صالحه يزيده جنوناً.. ويدفعه إلى مواصلة الجري؛ لأنه ما من فرصة أخرى غير هذه السنين المحدودة.. وهو كشاعر يعرف، أكثر من غيره، أن على الإنسان أن يتحقق بأي شيء، مهما يكن تافهاً، من أجل أن يفيد من الفرصة التي منحت له.

أبداً ما خطر على باله يوماً أنَّ الصفقة، بصيغتها هذه، ما هي في صالحه على الإطلاق حتى ولو احتسبناها بحساب المصالح وقسناها بمنطق المقاولين والتجار..

إن التنازل عن الإيمان يعني التشتت والدمار. . . وبدونه لن يحظى الإنسان، والإنسان الحساس على وجه الخصوص، بتوازنه وتوحده على الإطلاق.

مساكين هم أولئك الذينَ يتنازلون عن مواقع الإيمان. . يتخلون عن المساحة الشاسعة الممتدة في الزمان والمكان لكي ينحصروا في الجحور الضيقة. . في الزوايا المعتمة، بحثاً عن لقمة أكثر دسماً، وإشباعاً لشهوة أشد إلحاحاً. .

ثم ما تلبث المحاولة أن تتكشف عن فراغ مخيف، محزن، وعن اختيار بليد لم يملك أصحابه ذرة من ذكاء. . .

فأين هو الإنسان الذي يتحرك على مدى الكون من ذلك الذي اختار أن يزحف كالحشرات في الجحور والثقوب اللزجة، الرطبة، المعتمة؟!

وإنني لأُشاهده بين الحين والحين، يحاول أن يقتسر ابتسامة مصطنعة، مرسومة بصعوبة، يضعها على وجهه البائس التعيس، مجرد ديكور يغطي به حقيقة المحنة التي وضع نفسه فيها. .

وكنت أحِسُّ دائماً وأنا أراه فأقارنه بصاحبنا الذي تحاصره اللاجدوى، أنه أكثر تعاسة منه[١]. . . فذاك قد استسلم لنوع من اليأس الذي هو إحدى الراحتين، أما شاعرنا فإنه ما يزال يحترق في كل لحظة. . لا يزال يركض فلا يقدر على اللحاق. . لا يزال يلهث بفم يسيل لعابه وهو يرنو إلى هذه اللقمة الدسمة أو تلك الشهوة المغريةِ فَيُهْرَعُ إليها.

وما دامت إغراءات كهذه تتجدد لحظة بعد أخرى، فإنه مكتوب عليه أن يواصل اللهاث، ثم ما يلبث أن يجد نفسه غير قادر على الوصول، فتقتله

(١) انظر مقال: (. . . وسيكون سعيداً).

الحسرة ويدلف إلى ساحة الفناء وهو أشد إحساساً بالحرمان من المؤمنين أنفسهم الذين اكتفوا بالقدر المعلوم من المباحات.. مسكين هو شاعرنا.. إنه يمثل بتجربته الكالحة صيغة معاكسة تماماً لتجربة كاتبنا ذاك.. كلاهما يعانيان من مرارة انعدام اليقين.. ولكن الأول قد يصل يوماً، أما الثاني الذي اختار أن يتنازل عن موقعه كمؤمن، فكيف سيتاح له الرجوع إلى الجنة التي نفى نفسه منها.. كيف؟!




لنحاول أن نجرِّب

هل جرب أحدنا أن يؤمم حياته ووجوده وتجربته الذاتية وباطنه وظاهره.. لله؟!

هل أحسَّ أحدنا بالطعم العذب، والنكهة الحلوة، والإيقاع المتفرد، والفرح الطاغي، والاستقرار، والتوحد، والأمن.. وهو يمارس المحاولة؟

هل قَدِرَ أحدنا على تجاوز الحزن، والقهر، والأسى، والندم، والخوف، والتمزق، والشقاء، والضياع.. وهو يَهَبُ نفسه بالكلية لبارئها يفعل بها ما يشاء؟

لا أعتقد.. خصوصاً ونحن نعيش عصر العتمة المادية، والتكاثر، والإخلاد إلى الأرض.. عصر صراع المصالح، وثقل الشهوات، والارتكاس في حمأة الأهواء والظنون، والإثارة والإغراء..

عصر الخوف، والقلق، والحزن، والتمزق، والضياع.

عصر الاستلاب الفكري والنفسي والاجتماعي والسياسي والعقيدي.

عصر الطغيان، والاستبداد، وتعبيد الناس بعضهم لبعض، أو تعبدهم لمصالحهم وشهواتهم وأمانيهم وأهوائهم..

العصر الذي تطاولت فيه الجدران الفاصلة بين الإنسان وبين السماء، وأخذت تزداد سمكاً وغلظاً يوماً بعد يوم..

ومع ذلك.. بل من أجل ذلك، كان لابد من المحاولة، مهما كلفت من جهد، وتطلبت من مشقة، واقتضت من تضحية.. لابد من المحاولة كي

يكسر الإنسان الطوق، ويفتح ثغرة في الجدار الكالح، ويتجاوز الحصار المضروب..

ولن يكون ذلك مستحيلاً إن صدق العزم وخَلُصَتِ النية.. وقد فعلها قبلنا كثيرون.. وسيظل الكثيرون يفعلونها لأن الثمرة الحلوة تستحق التضحية والمشقة والفداء..

أن نؤمم جهودنا لله بالمحبة، أو بالتفكير، أو بالذكر، أو بالعمل، أو بالجهاد.. أو بالشهادة.

كثيرة هي أبواب التأميم.. وهي تدعونا كلّاً من حيث يقدر على الاستجابة للنداء، ويعتقد أنه جدير بتنفيذ مطالبه، والتحقق به وتحويله إلى حياة واقعة تُعاشُ ساعة بساعة ولحظة بلحظة.

إن الإسلام بسبب من واقعيته، ويُسْره، وانطباقه الباهر على قدرات الإنسان وإمكاناته، لايلزم أتباعه بالصعود إلى هذا الأفق الذي قد يتكلف مشقة وجُهداً.. ويضع دونه خطاً قريباً من متناول الإنسان هو خط الإيمان..

لكنه لايقف عند هذا الخط، بل يعقبه بخطوط أخرى، وينادي الإنسان المسلم بلهجة مترعة بالوعد والإثارة، أن يتحرك لعبور هذه الخطوط صعوداً باتجاه القمة..

إن التقوى هي الخط التالي باتجاه الإحسان.. هناك حيث يقف الإنسان، صباح مساء، قبالة الله سبحانه، ناذراً له حياته، ووجوده وطاقاته ومعطياته كافة.. أي مؤمماً له الفرصة الوحيدة التي منحها الله إياه في هذه الأرض لكي يختبره ويبلوه..

والإسلام، بسبب من واقعيته ويُسْره، يفتح الأبواب على مصاريعها أمام الإنسان المسلم لكي يتحقق بهذا الهدف العزيز فيجتاز الخطوط، ويصل، معانقاً مصيره المتفرد السعيد..

فمن حيث يمتلك هذا الإنسان مقدرة، أو إبداعاً، في جانب من جوانب الحياة، يستطيع أن ينطلق إلى هدفه المأمول، محتسباً ما يتمخض عن تلك المقدرة، مؤمماً إبداعه في مجرى الفعل الإيماني الذي يتحرك صوب الله بانتظار لحظة المقابلة الفذة.

وهكذا يكون تأميم حياة المسلم بالمحبة لمن يفيض قلبه بالعشق، وبالتفكير لمن يملك عقلاً فذاً، وبصيرة نافذة، وإدراكاً بعيداً. . وبالذكر لمن يخفق قلبه وعقله ووجدانه دوماً بإيقاع دائم واحد، بوجود الله القادر المدبر، المهيمن، الفاعل، المريد. . وبالعمل، أيّاً كان هذا العمل، لمن يبرع في هذا الجانب أو ذاك من جوانب القدرة على الفعل والتفنن، والإنجاز. . وبالجهاد لمن يقدر على حمل السيف والتجوال في أطراف العالم لمجابهة الكفر وجعل كلمة الله العليا. . وبالشهادة لمن يعرف كيف يقابل الموت فيمتطيه ركضاً إلى الجنة!

ليس ثمة درب واحد لتأميم الحياة لله، والتحقق بالإحسان. . بالتقابل المبدع مع الله. . وإنما هي دروب وطرائق شتى. . كل حسب قدرته. . كل وفق ما منحه الله سبحانه من قدرات وطاقات. . فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهكذا لم تكن هذه المحاولة، كما لم تكن أية محاولة أخرى في دائرة هذا الدين، لغزاً محيراً وأمراً مستحيلاً، وإنما هو الطريق المفتوح، والهدف المحدد الواضح، والإعانة على الوصول، بشتى الدوافع والمحفزات. .

وهكذا وجدنا عبر تاريخ الإسلام الطويل مئات بل ألوفاً ممن هُرِعُوا إلى السير نحو الهدف العزيز. . وهم رغم ما بذلوه من جهد وعانوه من مشقة، كانوا يحسون دوماً أنهم سعداء متوحدون، قديرون على التحقق بالفرح والأمن، واثقون من أنهم سيصلون. . قصر الوقت أم طال. .

واليوم يغدو الهدف أكثر إغراءً رغم أنه يتطلب جهداً أكبر بكثير، وأصعب بكثير.. لكنها الثمرة الحلوة التي تفوح عِطراً وتقطر عسلاً، والتي تستحق الجهد والعناء في زمن الجدب والعتمة وعصر الآلام والمرارات..




دراما الحياة

إذا أردنا أن نكثِّف تجربة الحياة البشرية بعبارة واحدة.. الحياة المترعة بالأخذ والرد.. بالخير والشر.. بالانتصار والهزيمة.. بالفرح والحزن.. بالضحك والبكاء.. بالانشراح والغم.. بالإقدام والإحجام.. بالانتشار والانكماش.. بالفاعلية والضمور.. بالتماسك والانسحاق.. وبسائر الثنائيات والتناقضات التي تَحْفِل بها حياة أي واحد مِنَّا..

إذا بحثنا في تجارب الآخرين ممن لعبوا دورهم في مسارح العالم ووضعوا بصماتهم على صفحات الحركة التأريخية، ودونوا سِيَرَهُمْ الذاتية ومذكِّراتهم.

إذا قرأنا فكر المفكرين وفلسفة الفلاسفة وأدب الأدباء في عشرات المؤلفات ومئاتها وألوفها..

إذا توغل كل واحد منا في تجربته الخاصة ومارس ما يسمى بالتأمل الذاتي أو الاستبطان لاكتناه سر التجربة ومفتاح الحركة في الأعماق..

إذا فعلنا هذا وذاك بحثاً عن عبارة واحدة تكون بمثابة العلامة الأكيدة على صيرورة الحياة البشرية ونسيجها.. فإننا لن نجد أروع وأعمق وأشمل من الآية القرآنية: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]؛ وذلك هو إعجاز الكلمات عندما تصدر عن صانع الكلمات والتجارب على السواء.

ثمة تطابق هندسي باهر بين الكلمة والتجربة وفق أشد الصيغ اقتصاداً وتركيزاً وقدرة على التعبير..

إنها ـ في الحق ـ (دراما) الحياة، ومقولتها التي يعرفها كل واحد منا والتي تجيء حياتنا بمذاقاتها الحلوة والمرة في كل يوم، بل في كل ساعة ودقيقة، لكي تكون مصداقاً لها وتأكيداً.

إن قراءة هذه الآية والتعمق في مدلولها يمنحنا ـ إذا صح التعبير ـ نوعاً من التطهر (الكاثرسيس) الذي كانت تمنحه التراجيديات اليونانية للمشاهدين.. التعامل مع الحزن المنظور والعناء المشاهد لاستخراج الحزن والعناء من الأعماق، وطردهما والتفوق عليهما...

إن لصوص التعاسة والشقاء والانهزام في منحنيات نفوسنا ودروبها كثيرون جداً، وما لم تتحول الأشباح إلى شخوص مرئية، محددة الملامح والسمات، فإنه يصعب إلقاء القبض عليها وسوقها للمحاكمة وإصدار الحكم المناسب، والإحساس ـ من ثم ـ بالأمن والسعادة والثقة واليقين.

إن قراءة هذه الآية تمنحنا نوعاً من الانشقاق على الذات.. من التحرر منها والاستعلاء عليها، والقدرة على معاينتها من الخارج وهي تتقلب بين السعادة والعذاب.. بين الفرح والحزن.. بين النور والظلمة.. وحينذاك لن تأسرنا حشود المتناقضات ولن يسحقنا سيل لا أول له ولا آخر من الثنائيات التي تحكم حياتنا من أول لحظةٍ للوعي وحتى يُغَيَّبَ الإنسان في التراب.

بل على العكس، إن إدراك سر هذا التقابل المشحون في صميم الحياة وفي أعماق التجربة يمكن أن يقود إلى (الحكمة) التي جعلت حياة الإنسان معجونة بالثنائيات.

إنها بمثابة المحرك أو المُحَفِّز الذي يدفع حياة الإنسان صُعُداً صوب الأحسن والأرقى.. إنها بمثابة فرصة ممتازة للاختيار والانتقاء، وقائمة منوعة بالمفردات لن يفيد منها إلا الذين قدروا على فهم السر وصاغوا منها قصائد حياتهم المترعة بالقيم والكفاح والجهد والتعاليم.

وعندما تصدر مقولة كهذه عن خالق الإنسان جَلَّتْ حكمته؛ فلنا أن نتصور مقدار الحرية التي تمنحنا إياها.. ونحن نظن، لعجزنا وجهلنا وقصورنا، أننا قد انتهينا لدى كل نازلة، وتفككنا عند كل مصاب، وانسحقنا تحت كل ضربة، وهُزِمنا إلى الأبد أمام هذه المحنة أو تلك.

كلا فإن ما يقابل هذا في مجرى الحياة نفسها حَشْدٌ آخر من معطيات الكسب والإنجاز والانتصار والتماسك والتحقق والتجاوز.. لمن يقدر على استلهام المصائب والنوازل، ويتوغل في صميم المحن والضربات.. ويقبل التحدي..

فقط لمن يدرك أن دينامو الحياة البشرية ومفتاح قدرتها على التمخض هو هذا التقابل الأبدي بين العسر واليسر.

ليس ثمة «عسر» ينوء بكلكله علينا فيسحقنا إلى الأبد..

وليس ثمة «يسر» يفتح أحضانه الأبدية فينسينا ويطغينا..

ولكنه الشد والجذب الذي يجعل الشخصية البشرية في حالة وعي دائم، وقدرة مستمرة على المجابهة والفعل والتجاوز والعطاء والإبداع..

وإذا كان بعض الكتاب الوجوديين في الغرب قد رأوا أن الإنسان مغبون إذ قُدِّرَ عليه أن يؤخذ بسلسلة من الأفعال وردودها، وأن يقيد بسلاسلها.. وإذا كان بعضهم الآخر قد أعلن بأن ضياع الإنسان يكمن في أنه يعيش أبداً حشداً من التناقضات النفسية..

فإن الآية القرآنية بمنطقها المعجز تجيء لكي تكتسح هذه الرؤية «السوداوية»، وتقدم بدلاً منها «موقفاً» شمولياً فاعلاً يكثف تجربة الحياة المعقدة المتشابكة بعبارة واحدة، ويمنحها القدرة على التجدد والانبعاث والفاعلية.. بالعبارة نفسها.. وصدق الله العظيم.




الصلاة المتحدية

ما أروع الصلاة عندما تمارس في صيغة التحدي!!

هل جرب أحدكم أن ينهض واقفاً من بين حشود المجتمعين في هذا الحفل أو ذاك لحظة سماع النداء، لكي يقف شامخاً في جانب من المكان ويؤدي صلاته أمام أنظار مئات من الناس قد تدهش للموقف، وقد تستنكره، وقد تعجب به في سرها، وقد يكون من بينها من هو ملتزم بأداء الصلاة يوماً بيوم إلَّا أن تكون هكذا أمام جموع الناس وفي حفل كبير يحمل أهميته.. وقدسيته؟!

هل جرب أحدكم أن يخترق هذه القدسية الموهومة، وأن يتخطى الحواجز النفسية والاجتماعية والمادية، لكي يقف، بزهو حقيقي، أمام الله وحده، ويستمد منه القدرة التي تكسر الحواجز وتتجاوز المألوفات؟

إنها حقاً لتجربة تملأ نفس الإنسان المسلم بالعزة والاستعلاء، وهو يجد نفسه قديراً، لحظة النداء، على الاستجابة، منفذاً على المكشوف مطالب النداء ومفرداته، متحققاً بمغزاه ومعناه.

إننا نسمع المرة تلو المرة هذا النداء، خمس مرات في اليوم، لكن الإلف والعادة كثيراً ما تطمسان على ألقِهِ، وتغطيان على جمرته المتوقدة كالنار..

حتى تأتي اللحظة، أو التجربة، التي تتكسر فيها القشور ويغيب الإلف والاعتياد، وتتكشَّف الكلمات على حقيقتها كما صيغت أول مرة..

في مناسبات جماعية كهذه، يقل فيها المؤمنون، ويكثر فيها خصوم الحق، يمكن أن يحظى الإنسان المسلم بلحظة سعيدة، متوقدة كهذه، وهو يتلقى الكلمات فيجد نفسه قديراً على الاستجابة.. قديراً على التحدي..

الله أكبر.. الله أكبر.. فليس ثمة قوة في العالم، بما فيها قوة هذا الحضور الجماهيري الموهوم، إلَّا وتتضاءل وتنحسر أمام قوة الله فتفقد سحرها ورهبتها.

أشهد أن لا إلٰه إلا الله.. فليس ثمة إلَّا الله وحده من يستحق الشهادة ويوجب الطاعة، ويفرض الحضور المرهوب.. ولن يكون أحد غيره، كائناً من كان، وأيّاً ما كان، بقادر على أن يحجب عن الإنسان المؤمن حق التوجه لله وحده، والتعبد له وحده، والاستجابة لندائه وحده..

أشهد أن محمداً رسول الله.. فها هو ذا الرسول المعلم يقودنا عبر الطريق، دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة، فإذا كنا نشهد حقاً برسالته عن الله فلنستجب للنداء، ولنرفع قامتنا عالياً لكي تكون بالحجم الذي أراده لها رسول الله!

حيَّ على الصلاة.. فها هي ذي اللحظة التي تتحتم فيها، وها هو ذا النداء الذي يحمل مغزاه الواضح؛ صلة بالله الأكبر من أيةِ قوة في العالم.. الواحد الذي تنحسر إزاء وحدانيته المطلقة، وتتساقط كافة الربوبيات والصنميات.

حيَّ على الفلاح.. وهل ثمة من فلاح يرجوه الإنسان أكثر من هذا الفلاح المتمثل بالذهاب لمقابلة الله لحظة النداء، دونما تأخر أو تسويف من أجل السعي لكسب مثوبته ورضاه.. الكل ذاهب.. زائل.. إلا هذا!!

ويعود النداء لكي يذكر الإنسان ثانية بأن الله أكبر، وأنه لا إلٰه إلَّا هو!

حينذاك لن يكون بمقدور الإنسان المؤمن أن ينهض واقفاً فحسب، وأن يجد مسلكاً ضيقاً صوب مكان يتيح له أداء الصلاة في وقتها فحسب، ولكنه يكون مستعداً أن يمشي على الرؤوس التي اعتادت أن تطأطئ للأوهام، والتي ما قدرت يوماً على أن تكسر الحواجز المصطنعة وتستجيب لنداء الله..

تلك هي متعة الصلاة المتحدية، ودفقها الروحي، وامتلاؤها الوجداني، وتحولها ـ كذلك ـ إلى معادلة فكرية واضحة لا تقبل خطأ بأي شكل من الأشكال.

الصلاة عندما تقام بمواجهة أكثرية لا تعرف الحق، أو هي تعرفه جيداً، ولكنها تجبن عنه، وتتردد إزاءه..

الصلاة عندما تكون شهادة منظورة، واستجابة على المكشوف، لما يحمله النداء اليومي من معانٍ.

ويعرف الإنسان كم يخسر المصلون وهم يفوتون على أنفسهم فرصة فريدة كهذه، فيؤجلون صلاتهم لحين انتهاء المناسبة وارفضاضهم إلى البيوت..

ـ إنهم في الحقيقة ـ سيخسرون مرتين.. مرة بتأخيرهم الأداء عن موعده المحدد، ومرة أخرى بتضييعهم فرصة التحدي من خلال شعيرة قد تبدو في الأحوال الاعتيادية مجرد ممارسة روحية صرفة.. ولكنها هنا قد تتجلى أكثر على حقيقتها؛ رفض للعبودية أية كانت صيغتها وأشكالها.. وتحرر وجداني حتى الأعماق!

التكتيك على الدين

عندما تجد بعض التجارب «الأيديولوجية» المادية نفسها مضطرة للرجوع إلى الدين في لحظات المصير، وعبر الأزمات التاريخية، كما فعلت روسيا إبان الهجوم النازي الكاسح، لمجابهة الخطر بإطلاق الطاقة الإيمانية في نفوس الجماهير وتحفيزها على المقاومة والصمود.

فما الذي يدل عليه هذا سوى تأكيد مشهود على عمق الحقيقة الدينية في نفس الإنسان، وثقلها، وتفوقها على كافة محاولات المحق الأيديولوجي وعمليات غسيل الدماغ؟

وعندما ينتفض الحس الديني وينتشر كالكهرباء عبر جيل كامل من أبناء دولة ماركسية كبولندة، دأبت لأكثر من أربعة عقود على استئصال أي أثر للدين على نفوس الجماهير.. بقوة السلطة.. بتأثير أجهزة الإعلام.. بالتوجيه التربوي، وبكافة وسائل التأثير والاستئصال.. حتى كاد المرء أن يصدق بأنه ليس ثمة رجوع بعد اليوم لأي ظاهرة من ظواهر التدين لدى جيل انبتَّتْ جذوره بالكلية عن الدين الذي انتمى إليه آباؤه وأجداده، بل إنه أصبح يعاني ـ إذا صح التعبير ـ من فقدان الذاكرة إزاء كل مفردات الدين، وتجاربه ومضامينه..

فما الذي يدل عليه هذا سوى أن الظاهرة الدينية أقوى، وأعمق، وأكثر امتداداً في عروق الإنسان، وتعاشقاً مع نسيجه العقلي والروحي والوجداني من أية عقيدة أخرى تسعى، تحت أي شعار كان، لكي تزيح الدين وتحل محله!

والقيادات الماركسية تعرف جيداً أن أي انحناء أمام الظاهرة الدينية، أو قبول بمرورها، ولو جزيئات وتفاريق، يرتطم في الأساس مع الأيديولوجية، ولذا يتحايلون على هذا التناقض فيسمون المحاولة (تكتيكاً) ويقولون بأن (التكتيك) هو غير (الاستراتيجية)، فهذه الأخيرة ترسم للمسائل الأساسية بعيدة المدى، وتستمد خطوطها وتكويناتها مع الأيديولوجية نفسها، أما (التكتيك) فهو إجراء موقوت قد تدفع إليه الضرورات لدرء خطر ما، أو تحقيق مصلحة، ثم هم ـ بعد ذلك ـ في حِلٍّ من الاستمرار عليه، خاصة وأنه قد لاينسجم ويتناغم مع الإيقاع العام للأيديولوجية!

التكتيك على الدين.. أي التعامل المرحلي الموقوت من أجل ما يتصورونه أكثر ديمومة وثقلاً وامتداداً..

ثم إذا بالتجربة تصفع هذا التحليل، وإذا بالدين يلوي عنق التكتيك ويكسر الأيدي التي تسعى من خلاله إلى العبث بالمقدسات الراسخة في ضمير الإنسان، وإذا به ـ أي الدين ـ يتجاوز هذا لكي يقف متحدياً الأيديولوجية نفسها صارخاً بحماتها وسدنتها، أن يفتحوا في جدرانها الصماء نوافذ وأبواباً لدخوله، وإلّا عصف بها الدين، حيث يكون الجمهور، رغم كل محاولات الخداع والتضليل والإغراء والتخويف، هو الحكم الاستراتيجي عبر لحظات المصير.. أي في المآزق التاريخية الكبرى، وحيث تكون روح الإنسان وإرادته المؤمنة هي الأداة الأكثر قدرة على استخدام السلاح ومجابهة التحديات.

عبر عقود محدودة من الزمن تشهد التجربة السوفييتية ثلاثاً من الانتفاضات، أو الضغوط الدينية من أجل العودة المحتومة إلى الجذور:

إحداها: جاءت باختيار ظاهري للقيادة الروسية أيام «ستالين» عندما فتح الأبواب الموصدة، وأتاح للدين المعتقل أن يخرج لكي يقاتل الألمان في

الشوارع والساحات، ولكن الأمر لم يكن اختياراً في حقيقته إنما هو الانحناء المحتوم أمام ثقل الظاهرة، والاعتراف الضمني بقدرتها على الفعل التاريخي، والمجابهة والتنفيذ.

وجاءت **ثانيتها** من جمهوريات الاتحاد السوفييتي ذات الأكثريات المسلمة، متمثلة بمطالب ملحَّة تقدم بها أكثر من قائد أو زعيم شيوعي هناك في أن تفسح الدولة مكاناً أكثر اتساعاً للممارسات الدينية، وأن تعترف ـ على الأقل ـ بالميزات الدينية الخاصة للملايين من مسلمي هذه البيئات ذات الأصول الإسلامية الحضارية العريقة.

وتنجح المحاولة، وتعبر عن نفسها بنصوص جديدة تنضاف لدستور الدولة.

أما **الثالثة** فقد جاءت من بولندا؛ حركة عمالية شاملة خفق نبضها بالدين والحرية، وجابهت طغيان السلطة دونما سلاح غير سلاح الإيمان.

ومهما يكن من أمر النتائج التي تمخضت، وستتمخض عن الحركة، فإنها تجيء بمثابة تأكيد لا يقبل جدلاً على ثقل الظاهرة الدينية وحضورها في أعماق الإنسان، وعلى أنها تنتظر اللحظات المناسبة لكي تطل برأسها، وتقول كلمتها في مجرى التغيرات والأحداث.. رغم كل العوائق ومحاولات الطمس والاستئصال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].




رؤية تربوية متكاملة

يتميز الإسلام من بين سائر المذاهب والأديان، بنظرته الشمولية ومفهومه المتكامل للعملية التربوية، فهو يسعى إلى تنمية وإغناء مقومات الشخصية كافة؛ فكرية وروحية وجسدية، ومحاولة استجاشتها ودفعها إلى حدود التوتر الأقصى القدير على تقديم أكبر قدر من العطاء، مع الحفاظ الدائم على حالة التوازن بين الجوانب الثلاثة في تكوين الشخصية.

فبينما تجنح بعض المذاهب والأديان باتجاه التربية الروحية بعيداً عن الاهتمام بمطالب العقل والجسد، وبينما تجنح مذاهب وأديان أخرى باتجاه التربية العقلية بعيداً عن الاهتمام بمطالب الروح، أو باتجاه التربية الجسدية بعيداً عن الاهتمام بمطالب الجسد والروح، **نجد الإسلام من خلال كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، يوجه اهتمامه في القطاعات الثلاثة؛ الروح والعقل والجسد، ويسعى إلى تكوين الإنسان المتوازن الذي يتمتع بسوية نفسية قديرة على الفعل والإبداع والعطاء**، وهي النظرة التي أكدتها ودعت إليها أحدث النظريات التربوية والدراسات النفسية.

ولقد أراد الإسلام بعملية التغيير الذاتي التي دعا إليها القرآن بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، تكوين الإنسان الفعال الذي هو بمثابة حجر الزاوية المتين في صياغة المجتمع المسلم الذي أنيطت به الأمانة الكبرى، وحمل مسؤولية تغيير خرائط العالم، والشهادة على مسيره ومصيره... ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وإننا لنلمح هذه الرؤية التربوية المتكاملة بوضوح في مواقف رسولنا ﷺ وتعاليمه وأوامره، ومن خلال القدوة (النموذج) التي صاغها بنفسه وضرب بها مثلاً يسير على هديه المؤمنون كافة في كل زمان ومكان. لقد مارس عليه السلام وأصحابه رضوان الله عليهم جهداً شاقاً من أجل التحقق بالتوازن والفاعلية، فبلغوا بالتعبد الدائم والتقوى العميقة قمة التجربة الروحية، وبلغوا بالتأمل العميق والنظر الدائب في ملكوت السماوات والأرض مراحل بعيدة في النشاط العقلي، وبلغوا بالرياضة الجادة والممارسات القتالية والفروسية المستمرة قمة التمكُّن الجسدي.

ويجب أن نلاحظ هنا أن هذا التقسيم بين العقل والروح والجسد إنما هو لغرض التوضيح فحسب، أما في الواقع، وكما علمنا الإسلام بتجربته الفذة التي تعرف كيف تتعامل مع النفس البشرية، فإنه ليس هناك فاصل بين هذه الممارسات جميعاً في صميم النفس، فهنالك دائماً تأثر وتأثير بين مكونات الإنسان كافة؛ روحية وجسدية وعقلية، ولذلك نجد أن أية ممارسة في الإسلام تحاول أن تمتد إلى هذه المكونات جميعاً وترفض العزل والتمييز بين واحدة وأخرى.

إن العبادة في الإسلام، رغم أنها تمس الجانب الروحي، فإنها لا تقف عند هذا الحد، ولكنها تمتد لكي تتعامل مع العقل والجسد، فضلاً عن الروح، ولكي تؤدي دورها التربوي في تكوين الشخصية المؤمنة السوية.

ولنتذكر «**الصلاة**» وكيف أن أداءها يعتمد حالة من التوازن المتوافق بين الاستجاشة الروحية، والتأمل العقلي، والرياضة الجسدية.

ولنتذكر «**الصيام**» وكيف أنه يحقق نوعاً من النقاء الروحي، والصفاء الذهني، والضبط والتصعيد الجسديين.

ولنتذكر «**الحج**» وكيف أنه يجيء بمثابة رحلة إلى الله ثلاثية الأبعاد؛ بالروح والعقل والجسد.

إننا، حيث تلفتنا، وجدنا التعبد، وهو واحد من ممارسات إسلامية لا يحصيها عد، يمتد إلى مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية، الخاصة والعامة، الفردية والجماعية، المادية والروحية.. تماماً كما تمتد الدماء وتسري في أوصال الجسد البشري وخلاياه.

إنه واحد من المواقف التي تتعامل مع الإنسان بمكوناته كافة، وتعرف كيف تربي وتنمي هذه المكونات بقدر من التناسب المحكم والتوازن المرسوم.

ذلك هو جانب من رؤية الإسلام التربوية التي لم ترقَ إليها أشد النظريات والمذاهب حداثة وعمقاً ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].




شيوعي أبيض ...
شيوعي أسود ...

أمر معروف أن تكون هناك تفرقة عنصرية بين الأبيض والأسود في بيئة رأسمالية، كواحدة من الممارسات اللاإنسانية الظالمة التي تعج بها تلك البيئة، لكنه ليس معروفاً في بيئة شيوعية يدعو أبناؤها إلى العدل والمساواة في كل شيء، ويستنكرون كل ما من شأنه أن يمس قناعاتهم التي تبلغ حدَّ القدسية! فكيف إن كانت التفرقة تنصبُّ على لون الجلد الذي لا اختيار للإنسان فيه؟

(ريتشارد رايت)، الأديب الروائي الأمريكي الأسود، الذي نعرفه جميعاً، أتيح له أن ينتمي للحركة الشيوعية في الولايات المتحدة في ثلاثينات هذا القرن[١] بحثاً عن العدل والمساواة، ولكنه ما لبث أن ارتطم بحشد من التناقضات ألْجَأته في نهاية المطاف إلى التخلي عن انتمائه بعد إذ رأى عدم قدرته على تحقيق الأمل المرتجى في أخص ما يمس الإنسان الأسود.

يحدثنا الرجل عن واحدة من هذه التناقضات؛ تفرقة عنصرية بين الأبيض والأسود ضمن التنظيم الشيوعي نفسه!! وكأنها ـ أي: التفرقة ـ واحدة من حتميات التاريخ التي حكى عنها ماركس ورفيقه أنغلر. وليعذرني القارئ إذا جعلت «ريتشارد رايت» نفسه يتكلم حتى نهاية هذا المقال الموجز دون أي تعليق، لأن المسألة أوضح من أن تضاف إليها كلمة واحدة!! سوى القول

(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

بأن على المرء أن يتذكر كيف كان ذوو الجلود السوداء يعيشون في أرض الإسلام.. وكيف كان المسلمون يعاملون منتمياً جديداً كبلال!!

«جاء ربيع عام ١٩٣٥م وبدأت خطط الإعداد لمؤتمر الكُتَّاب الأمريكيين اليساريين.. سافرت مع بعض المندوبين إلى نيويورك. وصلنا في المساء وسجلنا أسماءنا لجلسات المؤتمر.. وسألت عن معدات النوم وأماكنه فبدا الارتباك على أعضاء نادي «جون ريد» في نيويورك، وكلهم شيوعيون من البيض. وانتظرت بينما كان أحد الشيوعيين البيض يطلب شيوعياً آخر أبيض وينتحي به جانباً لكي يتباحثا في كيفية إيجاد مكان لنومي، أنا الشيوعي الزنجي الأسود. لقد كنت خلال رحلتي قد نسيت أنني أسود.. والآن وأنا أرى رفيقاً أبيض يتحدث بعصبية إلى آخر عن لون جلدي بدأت أشعر بالاشمئزاز.. وأخيراً عاد الرفيق الأبيض ليقول: لحظة واحدة أيها الرفيق، سوف أجد مكاناً لك، فسألت: ولكن أليست عندكم أماكن جاهزة؟ إن أمثال هذه الأمور تجهز عادة من قبل. فقال معترفاً بنغمة ودية: نعم هذا صحيح إن عندنا بعض العناوين هنا، ولكننا لا نعرف الأشخاص، ولعلك تفهم ما أعني! فقلت وأنا أصرف بأسناني: نعم أفهم ما تعني.

قال وهو يلمس ذراعي ليطمئنني: انتظر دقيقة فقط فسوف أجد شيئاً.

فقلت محاولاً ألَّا أجعل الغضب يبدو في صوتي: اسمع لا داعي لأن تزعج نفسك..

فقال وهو يهز رأسه بتصميم: لا، لا، إن هذه مشكلة وسوف أجد لها حلاً.

فلم أستطع إلَّا أنْ أقول: ما كان ينبغي أن تكون مشكلة.

فاستدرك يقول: أنا، أنا ماقصدت هذا!

فجعلت في سري ألْعَنُ الموقف، وكان بعض الناس يقفون قريباً ويلاحظون كيف أن شيوعياً أبيض يحاول أن يجد لرفيقه الشيوعي الأسود مكاناً ينام فيه، فأحسست بالخِزي. وبعد بضع دقائق عاد الشيوعي الأبيض زائغ النظرات يغطيه العرق، فقلت له: لعلك وجدت شيئاً؟

فأجاب وهو يلهث: لا، ما وجدت شيئاً بعد، ولكن انتظر لحظة فسوف أتحدث إلى شخص أعرفه، أعطني قرشاً لكي أستعمل الهاتف.

قلت: لا تزعج نفسك! سوف أجد لنفسي مكاناً، ولكني أحب أن أضع حقيبة ملابسي في مكان ما إلى أن ينتهي اجتماع الليلة.

فقال بلهفة لم يفلح في إخفائها: أتعتقد حقاً أنك تستطيع أن تجد مكاناً؟ فقلت:

طبعاً، أستطيع.

ولكنه ظل غير متيقن. لقد كان يود أن يساعدني، ولكنه لم يكن يدري كيف؟! وأخيراً أخذ حقيبتي ووضعها في إحدى الغرف، وخرجت أنا إلى الطريق أسائل نفسي: أين يمكنني أن أنام هذه الليلة؟! وقفت على أرصفة نيويورك وأنا أحمل جلدي الأسود ولا أكاد أحمل نقوداً.. وعند باب قاعة «كارنيجي» حيث تم الاجتماع قدمت أوراق اعتمادي ودخلت، ولكني وجدت نفسي لا أستمع إلى خطبهم وجهادهم وإنما أتساءل: لماذا أتيت؟ وبعد ذلك خطوت إلى الرصيف أشغل نفسي بالتطلع إلى وجوه الناس، إلى أن قابلت عضواً في «نادي شيكاغو» فسألني: ألم تجد مكاناً بعد؟ قلت: لا، ولقد كنت أود أن أجرب دخول أحد الفنادق لولا أنني لست في حالة تساعدني على أن أتجادل مع كاتب الفندق حول لون جلدي! قال: يا للعجب! انتظر دقيقة، ثم انطلق ولم يلبث أن عاد بعد لحظات مع امرأة سمينة بيضاء ثم قدمني إليها، فقالت: تستطيع أن تنام الليلة في مكاني.

وسرت معها إلى حيث قدمني إلى زوجها، فشكرتهم على كرمهم وذهبت للنوم على سرير صغير في المطبخ.. ثم انطلقت صباحاً إلى الرصيف وجلست على مقعد هناك، لكي أكتب بعض نقاط لأجل المناقشة دفاعاً عن النوادي اليسارية (التي عقد الاجتماع للتباحث بصدد حلها) ولكن مشكلة النوادي في هذه اللحظة بدت لي تافهة، والمشكلة التي بدت لي على جانب من الأهمية هي: هل يستطيع الزنجي في هذا البلد اللعين أن يحيا حياة قريبة من حياة البشر؟»[1].




(١) عن (الصنم الذي هوى) لآرثر كوستلر ورفاقه، ترجمة فؤاد حمودة، الدار السعودية للنشر، ط٢، بيروت - ١٩٧٠م، ص ١٦٩ - ١٧١.

ظاهرة تدعو للتفاؤل

في العقود الأخيرة من هذا القرن[١] برز على الساحة حشد كبير من الكتاب الذين عالجوا موضوعات إسلامية من هذه الزاوية أو تلك، وأخذ عددهم يتزايد بمرور الوقت، ومؤلفاتهم تفرض وجودها في ميادين الفكر والثقافة المعاصرة..

بعض هؤلاء الكتاب تخصص في الكتابة في الإسلام وحده، وقدم للمكتبة الإسلامية عدداً من المؤلفات لم يتجاوزها للكتابة في حقول أخرى.. وبعضهم الآخر اكتفى بتأليف الكتاب والكتابين والثلاثة عن الإسلام، بينما يممت مؤلفاته الأكثر عدداً صوب وجهات بعيدة عن دائرة الفكر الإسلامي.

مهما يكن من أمر فإن تزايد الكتاب الإسلامي، وانتشار الكُتّاب الذين يكتبون عن الإسلام هذا المدى الواسع من خارطة الفكر المعاصر، لَيُعَدُّ ظاهرة تدعو للتفاؤل والتقدير، إذ ليس بمقدور عقيدة أو مذهب لا يملك قدراً كافياً من الحيوية والتأثير والانتشار، أن يتحرك للحديث عنه، والكتابة فيه، وتحليل معطياته هذا الحشد الزاخر من الكتاب والأدباء والمفكرين.

ولكن الذي يحدث، ولا يزال، أن بعض هؤلاء الكتاب لم يكونوا يملكون رؤية نقية واضحة ومتكاملة الجوانب عن الإسلام، ليس لأنهم يتعمدون هذا كما يفعل خصوم الإسلام، ولكن لأن مواردهم الثقافية

(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

وبيئاتهم التي تشكلوا في مسالكها، وطبيعة قراءاتهم ومتابعاتهم، بل ـ ربما ـ نوازعهم وأذواقهم وميولهم الشخصية كانت تجعلهم ـ في بعض الأحيان ـ غير قديرين على تمثل الفكر الإسلامي بصيغه النقية الواضحة، وتصوراته الدقيقة المتكاملة.

وواضح من هذا أننا لا نتحدث هنا عن أولئك الذين كتبوا عن الإسلام من مواقع الخصومة والبغضاء، بل عن أولئك الذين أثار الإسلام دهشتهم وإعجابهم، بما يتضمنه من معطيات تفرض قناعاتها على كل عصر، وتبهر العقول المتألقة الذكية؛ الأمر الذي جعل بعضهم ينتهي إلى الالتزام بهذا الدين، والانتماء إليه عقيدة وشريعة وسلوكاً.. لكنهم ـ مع ذلك ـ لم يقدروا، رغم تألق مؤلفاتهم وامتلاكهم قدراً كبيراً من التحليل المقنع والتأثير المطلوب، على تمثل جوهر هذا الدين، أو يمتلكوا ناصية الرؤية الدقيقة الصائبة لمقولاته ومعادلاته.

فهل يحتم علينا هذا أن ننفي مؤلفاتهم تلك من المكتبة الإسلامية المعاصرة وندعو إلى رفضها وعدم الإفادة من تيارها الخصب المُتْرَع بالمعطيات المؤثرة؟

ثمة من يقول بهذا، خاصة إذا كان أولئك الكتاب ممن لم يلتزموا بالإسلام، وكانت لهم حياتهم وتجاربهم البعيدة عن مطالبه وإلزاماته.. أو ممن كان ماضيهم على الأقل أو مؤلفاتهم الأخرى، تبحر باتجاه مناقض لما طرحوه في مؤلفاتهم الإسلامية.

ولكن الواقع يجب أن يكون غير هذا على وجه التأكيد.. ذلك أن كلاًّ منهم يمثل خبرة غنية يتحتم الإفادة منها ما وسعت الإفادة.. خاصة وأن الكثيرين من هؤلاء تحولوا، بمرور الزمن،وتركز الوعي، من النقيض إلى النقيض، وجاؤوا إلى الساحة الإسلامية لكي يكتبوا وهم على علم تام

بجوانب إعجازها، وقوة بنيانها بالمقارنة مع الأفكار والعقائد والمذاهب المضادة التي كانوا قد انتموا إليها يوماً وخبروها جيداً.

هذا إلى أن كتاباتهم تملك قدراً من الحيوية والإثارة بسبب أنها تتمخض عن تجربة حيوية معيشة لا يزال أصحابها يحيونها، ويكتوون بنارها أو يُحِسُّون ببردها وسلامها.

ومهما يكن ماضي هؤلاء، ومهما يكن توجه مؤلفاتهم الأخرى، ومهما تضمنت كتاباتهم الإسلامية نفسها من دَخَلٍ وسوء فهم وقلة تمثل لمعطيات الإسلام، فيكفيها أهمية ونفعاً أنها تمنح القراء قناعات منظورة بأحقية هذا الدين في الاستمرار، وتفوقه على العقائد والمذاهب والعقائد الأخرى بما لا يقبل مقارنة أو قياساً، بدليل هذه الحشود من المفكرين اللامعين الذين جذبهم الإسلام فكتبوا عنها بهذا القدر من الإعجاب والتقدير.

ويكفيها أهمية بالغة أنها تملك ذلك القدر من التأثير الذي يكسب إعجاب القارئ المعاصر، ويقوده في نهاية الأمر إلى الإسلام، أو يقربه منه على أقل تقدير.

ثم إن هذه الكتابات تكمل بشكل من الأشكال، معطيات الإسلاميين أنفسهم، ذوي الرؤية النقية الواضحة.. وتملأ بعض الفجوات التي تركوها أو اضطروا لتركها إما لنقص في التجربة أو لاعتبارات خاصة بالأولويات.

بل إن بعض هذه الكتابات بطرحها أفكاراً جديدة قد لا يألفها الكتاب الإسلاميون تفتح باباً واسعاً من الحوار الخصب، كثيراً ما يؤول إلى مزيد من العطاء الممحِّص والنتائج الطيبة.

وحتى لو كانت قلة من أولئك الكتاب مصرة على مواقفها الخاطئة في الفكر أو السلوك، فإننا ـ على أسوأ الأحوال ـ نستطيع أن نطبق عليها

القاعدة المعروفة التي قال بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وهي: أن «إثمهم عليهم ونفعهم لنا».

نعم وبكل تأكيد، فإن مردود هذه الكتابات، على ما قد يتضمنه من سلبيات، هو أكبر بكثير وأجدى بكثير من نفيها من ساحة الفكر الإسلامي المعاصر.

فكيف يشن الحرب عليها كما قد يحلو لبعض الكتاب الإسلاميين أنفسهم؟!




العدل
وخطوط الدفاع الأربعة

يبدو أن ضمانات العدل منتشرة بالقسطاس وبشكل مرسوم، في ساحة الكون وفي صميم الحياة البشرية.

ذلك أن العدل نفسه واحد من أعمدة الوجود البشري في العالم ومبرر خطير من مبررات الحياة، بما أنَّها فرصة جدية هادفة وليست عبثاً أو فوضى. ولنا أن نتصور كيف ستغدو هذه الحياة لو انعدم العدل أو افتقد ضماناته التي تمكنه من الديمومة والتحقق..

إن قوى الظلم كثيرة وقديرة، وهي تملك أسلحة عاتية للتمكن في الأرض كواحدة من صيغ التحدي الذي كان على الإنسان أن يجابهه لكي يشتد ساعداه وتقوى عزيمته، ولكي تتحرك الحياة ويتدفق الإبداع.

ولكن هذه القوى ليست مطلقة السراح تفعل ما تشاء دون أن تجد في طريقها من العقبات والمتاريس ما يَفُتُّ في عضدها ويشلها أحياناً عن العمل. لقد شاءت إرادة الله سبحانه أن يجابهها بالعدل، وأن يمد خطوطاً معززة من «الدفاع» لحماية هذا العدل وإنزال القصاص بالظالمين.. فحيثما قدر هؤلاء على اجتياز أحد الخطوط والتفوق عليه، حيثما كان عليهم أن يجابهوا خطاً آخر قد يصعب اختراقه.

وهذه المعركة لاتقتصر على الأرض وحدها ولا تتوقف عند حدود الحياة الدنيا، ولكنها تمتد إلى السماء، وتتسع لكي تبلغ الآخرة.

وهكذا فإن الظلم سيجد نفسه محاصراً مقهوراً، طال الوقت أم قصر، وسيجد العقابَ العادلَ بانتظاره هنا في الأرض أو هناك في السماء.

وإذ كانت الحياة الأخرى هِي الدوام والامتداد والأبدية، وكانت حياتنا الدنيا هذه فرصة قصيرة، منصرمة، فانية، فإنه ليس مُهِمّاً في المنظور الإيماني أن يستعجل على حساب الظالم هنا، أو أن يعتبر إفلاته من القصاص في هذه الحياة بمثابة الخلاص النهائي.

ثم إن هذا التصور لا يحمل أي بُعْد سلبي كما قد يتوهم البعض، فليس ثمة في الإسلام أية دعوة لإلقاء السلاح والكف عن مجابهة الظلم في العالم بانتظار يوم الحساب..

على العكس تماماً، فإنه ما من دين يدعو لاستمرار المعركة منذ اللحظة الأولى وحتى النهاية كالإسلام، ويكفي أن نعرف جانباً من حقيقة الجهاد وأهدافه، لكي نتأكّد من ذلك، بل يكفي أن نطالع حديث الرسول ﷺ «الجهاد ماض إلى يوم القيامة». لكي تتبدى لنا الحقيقة أوضح من أن يَقْدِرَ أحَدٌ على طمسها كائناً من كان.

فليس ثمة مكان في تصورنا مطلقاً لعبارة الماديين المعروفة: «الدين أفيون الشعوب» وليس ثمة مبرر ـ حتى ـ لتذكرها.

إنما يطرح التصور الإسلامي رؤيته عن العدل في آفاقها الواسعة الممتدة في الزمان والمكان، لكي يؤكد واحدة من الحقائق الأساسية في نسيج هذا التطور؛ وهو حتمية العدل كقيمة خطيرة من القيم التي يقوم عليها بنيان السماوات والأرض، بل إن هذا التصور هو الذي دفع المسلمين ـ ولا يزال ـ إلى الإلحاح في ملاحقة الظلم، والاستشهاد دون العدل، ما دام أن هذا الفعل الجهادي سيؤتي ثماره عاجلاً أم آجلاً.

فالجزاء آتٍ لامحالة في المنظور الإسلامي، والإيماني عموماً، وليس ثمة لا جدوى تتحكم بالإنسان وتضيع فاعليته وجهده في سبيل أهدافه الكبرى.

إن الأمر ها هنا يبدو محفزاً إيجابياً على العكس تماماً مما يتوهمه البعض أو يوهم به الآخرين.

وخطوط الدفاع التي ألْمَحْنا إليها في بدء الحديث تبدأ بالإنسان نفسه وتمتد إلى المؤسسات التي تنظم حياته، ثم تتجاوز ذلك صوب الطبيعة نفسها بما تتضمنه من سنن وطاقات ونواميس.

ومن وراء هذه الخطوط الثلاثة، ومن قبلها وبعدها، ومن خلفها وبين يديها، تقف إرادة الله التي لا رادَّ لها لكي تحق الحق وتزهق الباطل وتمكن للعدل في الأرض والسماء.

فإذا حدث وأن أُفلت الظالم من عقاب «ضميره» المركوز في جِبِلَّتِهِ وتجاوز خط الدفاع الأول عن هذا العدل، فإنه سيجد نفسه محاصراً بالخط الثاني؛ النظم والمؤسسات التي تواضعت عليها المجتمعات البشرية لملاحقة الظلم وكفه عن الأذى وإنزال القصاص العادل به، وتحقيق هذا الجانب أو ذاك من جوانب العدل في العالم.

لكن هذه النظم وتلك المؤسسات لم تكن يوماً تملك قدرتها الكلية على تحقيق أهدافها وتنفيذ القصاص بمن يستحق، وحماية العدل من العدوان. وكثيراً ما حدث وأنْ عجزت عن مهمتها وتَمكن الجناة من الإفلات لكي يواصلوا العدوان وحينذاك قد يكون وقفهم عن المضي إلى أهدافهم المضادة للإنسان عند خط الدفاع الثالث؛ السنن الطبيعية التي يعجز ابن آدم أحياناً عن اختراقها بالباطل والتي قد تصبر على التجاوز، ولكنها ما تلبث أن تتحرك ـ بأمر الله ـ لكي تضرب ضربتها وتنزل قصاصها العادل بالمستحقين.

وها هنا ـ أيضاً ـ قد نجد الكثيرين ممن يقدرون على الإفلات ويجتازون خط الدفاع الثالث منتصرين. ولكن أنَّى لهم اجتياز الخط الأكبر، والأعمق، والأكثر امتداداً وشمولاً؟

إرادة الله، ورقابته، وهيمنته على كل صغيرة وكبيرة، الإرادة التي لايعزب عنها مثقال ذرة في السماوات والأرض؟

إن الظالم قد يُفْلِتُ من ضميره بعد أن يتيبس هذا الضمير ويفقد وظيفته، وقد يفلت من المؤسسة أو النظام ذي الرقابة النسبية والقدرات المحدودة مهما امتلك من وسائل وتفنن في استخدام الأساليب.. وقد يُفْلِتُ من عقاب السنن الطبيعية ويمضي إلى هدفه دون أن يعوقه أيُّ شيء منها.

ولكنه لن يقدر على الإفلات من قبضة الله!!

وقد يطول المدى بين الفعل الظالم والقصاص العادل؛ فيتوهم البعض أنه ليس بنازل أبداً..

ولكنه نازل بالمجرمين.. يقيناً..

فالله سبحانه قد يمهل الظالم، لهذا السبب أو ذاك، ولكنه لا يهمله حتى لو التجأ إلى نفق الأرض أو ابتغى سلماً في السماء.. ثم هو سبحانه إذا أخذ الظالم فلن يفلته أبداً..

ومن خلال هذا التصور الإيجابي يطمئن الإنسان المؤمن، ولا تذهب نفسه حسرات وهو يرى عشرات، بل مئات المجرمين وألوفهم، ينفذون بجلدهم من العقاب ويموتون مطمئنين.

فهناك بعد الموتة الأولى بعث ونشور.. وحساب عسير!!

الإنسان موقف

الإنسان «موقف». . وإلا فما الذي يميزه عن الحشرات والأنعام؟!

ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الناس، على مر الزمان واختلاف المكان، لم يتخذوا موقفاً، بل إن هذا لينطبق على الأكثرية الساحقة.

فحتى تلك الملايين التي تنتمي إلى هذا الدين أو ذاك، لا تنتمي إليه موقفاً تختاره وتلتزمه، ولكنه تقليد يجري فيه الأبناء على منوال الآباء، ونحن ننظر إلى أقرب الناس إلينا. . مئات وألوف من المسلمين، سموا أنفسهم بالمسلمين، وحسبوا بحكم الضرورة الجغرافية على الإسلام، ولا شيء وراء هذا وذاك، فإن علاقتهم بالإسلام ليست علاقة التزام، ليست موقفاً عقيدياً بحال من الأحوال.

وما يقال عن المسلمين يمكن أن يقال عن اليهود والنصارى، والبوذيين وأتباع الديانات الأخرى.

والمذاهب الوضعية نفسها لا تنجو من الظاهرة، فإن الأجيال التالية على رواد الحركة البلشفية في الاتحاد السوفييتي، على سبيل المثال، أو أي من الأقطار الشيوعية في العالم، لا تدين بالفكر الماركسي من اختيار ذاتي أو موقف تتخذه بقناعاتها والتزامها، وإنما هو التقليد الذي تساق إليه طواعية أو كَرْهاً إلا قلة قليلة بطبيعة الحال.

ومهما يكن من أمر، فإن هنالك في مقابل هذا، وفي نسيج كل مجتمع، طلائع من الناس كانت تجد نفسها ملزمة باتخاذ موقف ما من أجل أن تكون بمستوى إنسانيتها.

ومنذ اللحظات الأولى التي هبط فيها إلى العالم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، وسمع النداء واضحاً لا لبس فيه ولا غموض: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

دعوة واضحة صريحة لآدم، وذريته من بعده، كي تتخذ موقفاً، تنتمي للهدى المنزَّل من السماء، إذا ما أرادت تجاوز الخوف والحزن والضياع. .

ولم تكن هذه الدعوة لاتخاذ الموقف الملائم قسرية، ولاسعت لإرغام الإنسان على التزامها بالعنف والإكراه، وإنما هي الحرية التي تليق بالإنسان، والتعاليم التي توازي هذه الحرية من أجل ألَّا يتعرض للضياع في هذا العالم.

وله بعد هذا أن يلتزم، أو أن يظل بلا موقف ولا التزام؛ فإنه هو الرابح وهو الخاسر، في الحالين.

وبمرور الوقت أخذ يتبين أن المشكلة لا تكمن فقط في عدم الانتماء، في رفض اتخاذ موقف ما والالتزام به، ولكن ـ أيضاً ـ في اختيار عقيدة أو فكرة خاطئة. . واتخاذ موقف ليس في النهاية لصالح الإنسان. .

من قاد الإنسان إلى هذه المأساة فضاعف من تخبطه، وزاد من ضياعه في العالم، وجعل معضلته مركبة بعد أن كانت سهلة بسيطة؟

كثيرة هي الأسباب، ولكن يقف في المقدمة منها ذلك الخط الطويل من الكهنة والأرباب والوضاعين والفلاسفة والأدعياء. .

كل يطرح مذهباً يخيِّل فيه للناس أنه الصواب المطلق وما دونه الباطل، كل يعلن عن فلسفة يوهم الناس أنها الحق المطلق وما وراءها الضلال، كل يصوغ نظرية في الفكر أو الدين أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو

النفس أو التربية... إلخ، ويخدع الناس بأنها العلم الكامل، وأن ما دونها الجهل والخرافة والأوهام.

وهم يفعلون هذا من أجل تحقيق مصلحة ذاتية، أياً كانت طبيعة هذه المصلحة وتكوينها، فهي حيناً تتوخى كسباً مادياً، وهي حيناً آخر تستهدف استعباد الناس، وحيناً ثالثاً تسعى إلى نيل إعجابهم ودهشتهم، وخضوعهم بالتالي..

إنهم طواغيت المال والسياسة والفكر والعقيدة والفلسفة، هؤلاء الذي يضللون الناس ويدفعونهم لكي يتخذوا الموقف الخاطئ الذي لن يكون في صالحهم على أية حال..

ولكن من الذي يُلْزِمُ هؤلاء بالانسياق وراء الضلال، والاستجابة للخداع، والانحناء للادعاء، والتعبد للطغيان؟!

إنه الجهل، أو الضعف، أو الخوف، أو الإغراء، أو غيرها من الأسباب، فليست المسألة ـ إذن ـ تكمن في اتخاذ موقف لكي يتميز الإنسان عن الحشرات والأنعام، ولكن في اتخاذ الموقف الصائب، الموقف الذي ينطبق على قامة الإنسان ويستجيب لحاجاته، ويرفعه ويزكيه، ويسيده على العالمين.

ولن يكون أحدٌ من الناس بقادر على تقديم موقف كهذا مهما كان حجم ادعائه، ومهما غطّى عجزه وقصوره بنظريات تعجب، وفلسفات تبهر، وأساليب ملتوية تضلل وتخدع، ومهما استعان بوسائل القوة والسلطان لفرض موقفه على عقول الآخرين، وإرغامهم على قبوله.

فهذا الإنسان، مهما امتلك من علم وقدرة وسلطان، لا يعدو أن يكون واحداً من آلاف الناس وملايينهم، فيه ما فيهم من عجز، ويحكمه ما يحكمهم من جهل وغرور، ويلفه ويلفهم من ظنون وأهواء.

ولن يكون إلَّا الدين المنزَّل من عند الله سبحانه، الموقف الذي يليق بمكانة الإنسان في العالم، والذي ينقذه من التيه والحزن والخوف والضياع.

وهي أمور يعيشها الإنسان المعاصر، يعرفها جيداً، ويلعق مرارتها صباح مساء..

وهكذا ومن حيث التفتنا وجدنا أنفسنا في الحالة ذاتها التي وجد آدم نفسه فيها، لابد من تلقي الكلمات.. لابد من اتباع الهدى المنزَّل من السماء، واتخاذ الموقف الذي يليق بالإنسان.

وليس وراء ذلك سوى الأماني والأوهام والظنون.. وما هي بالمواقف التي تتخذ؛ ولكنها المصالح والمخاوف والأهواء!




الوسطية والوفاق

ما أجمل موقف الإسلام من كل قضية، وما أشد منطقيته مع كل مسألة، وما أروع رؤيته المهندسة المتفردة لكل شيء..

إنه الموقع الوسطي العادل الذي اختاره الله سبحانه لهذه الأمة لحظة انتمائها لدينه القويم، الموقع الذي يتعامل مع معطيات الكون والحياة والإنسان وفق صيغة متوازنة، ورؤى شاملة وتحليلات موضوعية لا تنحرف ذات اليمين وذات الشمال.

لقد جاء الإسلام لكي يحقق الوفاق بين الموجودات، والتناغم بين الإنسان والعالم والكون، ويتوجَّه بها جميعاً صوب الخلاق، فما ثمة بد من أن تتحقق في كل جزئية من جزئيات الإسلام هذه النظرة المنطقية الطبيعية إزاء المشاكل والقضايا والمعضلات.

لقد أُريد للإسلام أن يكون الإطار الأمثل لحركة الكون والحياة والعالم والإنسان، ومن ثم كان هذا الانسجام المعجز والتناغم العميق.

وللوهلة الأولى تتبدى بعض مواقف الإسلام من هذه القضية أو تلك غامضة، أو ناقصة، أو متطرفة، أو غير مقنعة عِلى العموم، ولكن بالتمعن في الموقف، باختباره على مستوى التحقق الذاتي أو التاريخي، يتبين صدقه ومنطقيته وإقناعه.

وكثيرة هي المواقف الإسلامية التي أُعلنت إزاءها صيحات الرفض والتشكيك والاحتجاج ممن يجهلون البعد الحقيقي للموقف، أو ممن

يتعمدون أن يتجاهلوه، ولكن الحركة التاريخية، حركة الواقع البشري نفسه، سرعان ما تكشفت عن زيف هذا الادعاء وصدق الموقف الإسلامي.. ليس هذا فحسب، بل لترغم في الكثير من الأحيان هؤلاء (المحتجين) على الأخذ بمقولات هذا الموقف وَالإذعان لهندسته البارعة.

ذلك أنه موقف يتميز بالوسطية في رؤيته للظواهر وتحليله لها، وطرحه الحلول والبرامج لمشاكلها ومعضلاتها.

ولا يذهب الظن إلى أن الموقف الوسطي يعني الحل الوسط، أبداً، فالموقف رفض للجنوح ذات اليمين أو ذات الشمال، والحل الوسط قبول لتفاريق من اليمين واليسار.. أجزاء من هذا الجانب أو ذاك.. الموقف أصالة وذاتية، والحل الوسط ترقيع وفقدان للهوية.. الموقف جوهر متفرد، والحل الوسط مركب من عديد من المواقف.

فهو وسطي إذن بشموليته، وموضوعيته، وإدراكه الفذ لمطالب الحياة والإنسان، وقدرته الفريدة على وضع الحلول المناسبة التي تنطبق على الوضع أو المعضلة انطباقاً رياضياً باهراً.

إن إيجابية هذه الوسطية تتبدَّى لحظة إحالتها على المحاولات الوضعية[1] لمجابهة مطالب الحياة، إنها حينذاك تميل وتجور وتتطرف وتبتعد عن نقطة التوازن، وتلح في البعد؛ فتذهب ذات اليمين، ثم تتوغل فيه صوب حده الأقصى، أو تتجه ذات الشمال ثم تتوغل إلى حده الأقصى.

وفي كلتا المحاولتين تفقد المحاولة قدرتها على مجابهة كافة أطراف المعضلة، ووضع الحل الذي ينطبق على مساحاتها وخطوطها كافة، وتنكمش بدلاً من ذلك لكي تغطي جانباً محدوداً منها فحسب، وهي ـ مع

---

(١) المقصود هنا المعنى اللغوي لا الاصطلاحي للكلمة.

ذلك ـ لا تغطيه بالحل الذي يملك التركيز والإدراك، ولكن، في معظم الأحيان، بالظنون والأهواء.

كثيرة جداً هي المعضلات والقضايا التي تتطلب حلولاً، ممتدة على مساحات الزمان والمكان، متجددة تجدد الحياة نفسها.

وإزاء كل واحدة من هذه القضايا أو المعضلات نلتقي بالوسطية الإسلامية، ونلتقي ـ كذلك ـ بجنوح المذاهب الوضعية وفقدانها التوازن والشمولية.

قضية المرأة مثلاً، إن المذاهب الوضعية لم تستطع أن تجد إلى الآن الصيغة المناسبة التي تضع هذا المخلوق موضعه الحق، ومن ثم تميل بها ذلك الميل العظيم الذي حدثنا عنه كتاب الله، وتتأرجح في أقصى حديها بين الإباحية التي تهبط بها إلى درك الحيوانية، وبين الكبت الذي يدمر طاقاتها المبدعة ويفقدها دورها المتميز الأصيل.

أما في المنظور الإسلامي فإنها ـ من خلال رؤية وسطية عادلة ـ تأخذ مكانها الحق بما ينسجم تماماً مع تكوينها ومطالبها؛ إنسانة، وأنثى، وابنة، وأختاً، وزوجة، وأمّاً، وليس هنا بطبيعة الحال مجال الدخول في التفاصيل.

في قضية الفرد والمجتمع قالت المذاهب الوضعية ـ ولا تزال ـ كلمتها في معادلتها الصعبة؛ إما الفرد أو المجتمع.. إما الحرية أو العدل.. إما هذا أو ذاك.. أما الإسلام فإنه قَدِرَ بوسطيته على أن يَلُمَّ حَدَّيِ المعادلة ويعطينا الجواب المقنع الصحيح: هذا وذاك، الفرد والمجتمع، الحرية والعدل.

في مسألة الروح والجسد نلتقي بالمذاهب الوضعية والأديان المحرفة وهي تضرب في التيه، محلقة حيناً في سماوات الروح والمثال، وهابطة

حيناً آخر لكي تلتصق بالجسد والتراب.. والحصاد في كل الأحوال هو دمار الإنسان وعدم قدرته على التحقق بالوئام والانسجام، أما الإسلام فإنه يتفرَّد من بين سائر المذاهب والأديان، ويقدر في الوقت نفسه ومن خلال رؤيته الوسطية المتكاملة أن يَمنح الإنسان انسجامه ووئامه، وأن يتجاوز به مأساة التمزق والازدواج.

وما يقال عن هذا يمكن أن يقال عن قضايا أخرى كثيرة؛ الطبيعة والغيب، الثبات والتطور، الدين والعلم، الأرض والسماء، القدر والحرية، الدنيا والآخرة، وغيرها خط طويل من الثنائيات أو التقابلات التي أقامت المذاهب الوضعية بينها سداً، فعزلت بعضها عن بعض وقطعت عليها طريق التواصل والالتحام، وجاء الإسلام لكي يقودها بوسطيته الشمولية إلى التوحد واللقاء.

وتكون النتيجة ليست سعادة الإنسان وانتماءه الذاتي فحسب، ولكن منحه قدرة أكبر على الفاعلية والإنجاز.

إن الموقع الوسطي الذي اختاره الإسلام ليس مكاناً جغرافياً محدداً، ولكنه استشراف وشمول واستراتيجية عمل، وقدرة فذة على تحقيق الوفاق والانسجام بين كافة الثنائيات، الأمر الذي يمنح المسلمين مركز التفوق والصدارة، ويمكنهم من قيادة الأمم والشعوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].




ما يُقرأ وما يُرْمَى به عُرْضَ الحائط

مرة أخرى أعود للكتابة في موضوع سبق وأن تحدثت فيه كثيراً، ولكن الضرورات تبيح المحظورات كما يقول المثل، وإذا ضاق الأمر اتسع كما يقول المثل الفقهي.

فبين الحين والحين يلتقي المرء بنماذج من المثقفين أو أنصافهم، بعضهم يعني ما يقول، وأكثرهم لا يعني ما يقول. ويتدرَّج هؤلاء في سلم المعرفة ما بين طالب إعدادية وأستاذ جامعي، ولكن إذا كان الهوى هو الذي يُصْدِرُ الأحكام فليس ثمة فارق أساساً بين الطالب والأستاذ!

ومن بين هؤلاء جمع من الناس ينعى على الكتابات الإسلامية المعاصرة توجهها صوب عموم المثقفين وعدم التزامها الصارم بمبادئ التخصص العلمي ذي التنصيص والتهميش.

وهم يقيسون نجاح مؤلف من المؤلفات بمدى التصاقه بدائرة تخصصه ومقدار ما تتضمنه صفحاته السفلى، أو الخلفية، من هوامش وإشارات وتحقيقات وإيضاحات قاموسية وذيول.. بل إنَ بعضهم يذهب إلى أبعد من هذا فَيُصِرُّ على أن الكتابات المُجْدِية هي تلك التي تقبس من مصادرنا القديمة وحدها في هذا المجال أو ذاك، وتقف عن حدود معطيات الأجداد ولا تتجاوزها البتة إلا في حال إيضاح نص، أو تفسير عبارة، أو شرح كلمة.

وسمعت أكثر من واحد يقول: إن أعمالاً كهذه جديرة بالعناء حقاً، وأما ما عداها فما يكاد يسد حاجة أو يروي غلَّةً..

لكن كلام هؤلاء الذي ينبعث عن الحرص حيناً وعن الهوى في معظم الأحيان، شيء، والتجربة الواقعية المعيشة وضروراتها الثقافية شيء آخر..

المفكر الجاد هو الذي يتابع هذه الضرورات، ويرتب أولوياتها في زمن منصرم قد لا يتسع لقول كل شيء هام!

ومن بين هذه الضرورات وتلك الأولويات أن نتجه بالكتابة إلى الطبقة الأوسع من المثقفين والقراء، وأن تملك هذه الكتابة القدرة على التأثير العقلي والوجداني، والحركي في نهاية الأمر، فضلاً عن تحقيق قدر من التواصل مع «العصر» الذي نعيشه جميعاً، وضرورة أن تكون مناهجنا ومفرداتنا قديرة على الإفادة من معطياته من جهة، وتوصيل فكرنا الإيماني إلى سمعه وعقله وضميره.. من جهة أخرى..

مَنْ لهذه القاعدة الواسعة من المثقفين لو حدث وأن استجبنا لتلك الرغبات المحدودة، واعتقلنا أنفسنا كُلّاً في حدود تخصصه، فكتب هذا في حرفي «لا وكلا»، وكتب ذاك في الفرق «بين الضاد والظاء»، وحبس ثالث نفسه في «حكم شهادة الزور» و«إسقاط الدعوى من جانب واحد»، وأنفق رابع عمره في «أسباب تدهور المالية في عصر المقتدر»، وقدم كل واحد من هؤلاء مئات النصوص وألوف الهوامش والتعليقات والشروح؟

ولحسن الحظ فإن هذا الذي يريده هؤلاء واقع بالفعل، فإن الجامعات أخذت تخرج، في العقود الثلاثة الأخيرة بشكل خاص، عشرات بل مئات من هؤلاء المتخصصين الذين تلزمهم الضرورات الأكاديمية في تقديم أعمال وعينات تخصصية من هذا القبيل.

ولا ضير في ذلك مطلقاً، بل هو ضرورة من ضرورات العمل الأكاديمي وهو في الحق يملأ فراغاً كبيراً في المكتبة المعاصرة في كافة اختصاصاتها وفروعها. ولكن الضير في أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه، وفي أن يكون مجال تخصصنا سجناً لنا لا يسمح بالذهاب بعيداً، والتجوال في حقول المعرفة المختلفة، ومخاطبة المثقفين بالصيغ التي تؤثر فيهم، وبالأسلوب والمنهج اللذين يجعلانهم يُقْبِلُونَ على القراءة والتلقي، لا يهربون منها ويلوذون بالفرار!

وإنني لأقولها على سبيل اليقين المستمد من الواقع المشهود؛ كَمْ مِنَ المثقفين الإسلاميين، وغير الإسلاميين، قَدِروا على أن يواصلوا القراءة في معظم الأطروحات التي تطرحها الجامعات شهراً بشهر وأسبوعاً بأسبوع؟ كم منهم أقفل عليها الغلاف لا لصعوبة فيها، أو عمق في فكر صاحبها وإنما لأنها تتحرك في نطاق ضيق محدود لا يهم إلَّا الباحثين والمتخصصين. وحتى هؤلاء فإنهم لم يكلفوا أنفسهم يوماً عناء قراءة أعمال كهذه من الغلاف إلى الغلاف. كل الذي يفعلون أنهم يمرون على ما يهمهم مروراً سريعاً، يقبسون منه هذا النص أو ذاك،، وهذا التعليق أو ذاك، ثم يطبقون على الأطروحة الغلاف بعد أن يكونوا قد أخذوا حاجتهم المحددة منها.

وعلى غير ما يتوهمه هؤلاء فإن التنصيص والتهميش المزدحمين قد يخفيان وراءهما عجزاً، فإن كثيراً من أنصاف الباحثين، وأرباعهم، لا يقدرون على كتابة صفحة واحدة من عند أنفسهم، صفحة واحدة قد تتضمن تحليلاً حيناً، وإبداعاً حيناً آخر، وإضافة وإغناءً حيناً ثالثاً، فيتكئون على النصوص التي يجمعونها من حشود المصادر يسندون ظهورهم إليها، كيلا يضطرهم الترنح في الفراغ إلى السقوط!

إنهم لا يفعلون أكثر من تنضيد هذه النصوص، وَفْقَ هذه الصيغة أو تلك، والربط بينها بحروف العطف والإضافة، ثم تهميشها بأكبر قدر ممكن من المصادر والمراجع.

وبما أن الأكاديميات، فيَ معظمها، أصبحت تمنح درجاتها «الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه» بمجرد تقديم «أطروحة»، مطلق أطروحة، كما يقول المناطقة، بغض النظر عن مبلغ أصالتها، ومدى قدرة صاحبها على الإضافة والإبداع، فإن أعمالاً كهذه تشق طريقها محمولة على أظهر أصحابها إلى المراكز الجامعية المتقدمة، لكي تحسب هناك كتباً من الكتب وأبحاثاً من الأبحاث.

بعدها، يصعب على المرء المتابع أن يعثر على بحث قيم واحد لمعظم هؤلاء الخريجين. . كانوا يريدون الشهادة العليا وها هم قد حصلوا عليها، فعلام يكتبون ويبحثون؟! وهم حتى ولو أرادوا، أتُراهم يملكون القدرة على تقديم شيء ذي غناء؟ ولمن إذا كانت قاعدة المثقفين العريضة تملك إحساساً ذكياً فيما يقرأ، وفيما يرمى به عرض الحائط بعد الاطلاع على سطوره الأولى؟

إن الأعمال التي تعتمد فكر الباحث وقدراته وفق أقل قدر من الاتكاء على معطيات الغير، هي بلا ريب أكثر صعوبة وقيمة. . والكاتب الذي يملك هذه القدرة، لا يعجزه، كما يتوهم المتوهمون، أن يملأ أبحاثه بالتنصيصات والتهميشات، ولكنه يعتبرها مجرد خطوة أولية لا يقف عندها إلا كُتَّاب التقارير وطلبة الدراسات العليا، أما هو فيجد نفسه مضطراً لتجاوز هذه المرحلة صوب الإضافة والإبداع.

وليس عليه بعد هذا أن يتكئ كّتاب التقارير على حشود النصوص، أو أن يختبئوا وراء منهج البحث العلمي وهم أبعد ما يكونون عن مطالبه إذا اعتبرنا أن من ضرورات العلم الإضافة والإبداع وقوة الخيال.

لا عليه.. لأن مقياسه الأول والأخير هو تلك القاعدة الكبيرة العزيزة من المثقفين والأذكياء، التي تعرف بحسها وخبرتها، ما الذي يستحق أن يقرأ، وما الذي لا يستحق!!




الثابت والمتحول في الإسلام

إن احتواء بنية الفكر الإسلامي على عنصري الثبات والتطور ليذكر المرء بالإطار أو العجلة التي تحرك العربات والسيارات والقطارات وأدوات الحرب.. وغيرها..

وهي العجلة التي أشار إليها الفيلسوف والمؤرخ البريطاني المعروف «أرنولد توينبي» وهو يتحدث عن الحركة التاريخية، وعن التحديات والاستجابات..

إن العجلة ترتبط بمحور ثابت ولكنها ـ من خلال هذا المحور ـ تلف وتدور وتمضي بالمركبات التي تستقر عليها إلى كل مكان..

ولن يكون بمقدور عجلة ما أن تؤدي وظيفتها دون هذا الدوران المنتظم حول المحور الثابت..

والذين تأخذهم نوبات الحماس والاندفاع العاطفي، باسم العقلانية، والموضوعية، وقوانين التاريخ، فيدعون إلى التطور المطلق دونما أي ارتكاز على أصول ثابتة، كأنهم يطلبون من العجلة أن تؤدي دورها أن ترتكز على محورها الثابت.. إنه سيغدو مستحيلاً عليها أنْ تؤدي وظيفتها وأن تنتقل بالعربات والمركبات إلى أهدافها القريبة والبعيدة.. لأنها ستدور مرتين أو ثلاثاً وما تلبث أن تتفكك وتتبعثر، وتجد المركبة نفسها قد انزلقت إلى الأرض لكي تستقر هناك، ثابتة ساكنة، غير قادرة على التحول والحركة.

وطبعاً، فإن الذين يدعون بالمقابل إلى ثبات الحياة وشدها إلى محاور ساكنة لا تلف ولا تدور فإنهم كمن يحكم على العجلة أن تظل حيث هي في مكانها لا تدور أبداً، وهي بِحِرانها ذاك تحكم على المركبة بالبقاء الأبدي في مكانها..

وفي معظم الأحوال كانت المعطيات الفكرية البشرية تميل إلى هذا الجانب أو ذاك، فتصيب الحركة التاريخية الموزونة بالعقم أو الانحراف أو التفلت، وفي كل الأحوال ما كان بمقدور المركبات البشرية أن تصل إلى أهدافها..

أيُّ تطورٍ هذا الذي لا يرتكز على مقومات ثابتة لا تنبثق من تكوين الإنسان وسنن الحياة ونواميس الكون وقوانين التاريخ نفسه؟!

وأيُّ سكونٍ هذا برفض الاعتراف بعناصر الحركة والنمو التي تعبر عن نفسها بوضوح مكشوف حيناً، وبخفاء حيناً آخر، في تكويننا الآدمي نفسه وفي ساحة الحياة، وعلى مدى السنوات القريبة والبعيدة.. وفي نسيج الفعل التاريخي المتحقق في الزمن والمكان؟!

إن واحداً من جوانب الإعجاز في بنية الفكر الإسلامي يتبدى واضحاً هاهنا بالذات؛ تحقيق الوفاق المرسوم بعناية بين عناصر الثبات والتحول واحتواء كافة معطياتها، بصيغة متفردة لا تتعسف لَمَّ الجزيئات لَمّاً ميكانيكياً آلياً صِرْفاً، ولا تكدسها تكديساً شيئاً تراكمياً يفتقد التوازن والارتباط.. ولكنها تعشّق بين النسب والمكونات، تجعلها تتداخل وتلتحم وتتفاعل في إطار تجربة حيوية مترابطة تكاد تختفي في نسيجها خيوط الثابت والمتحول، لكي ما تلبث أن تبرز للعيان قطعة محبكة من نسيج متين مشغول بمهارة فائقة.

إن المسألة لا تقتصر على التوجه الشمولي للفكر الإسلامي، أو على طابعه العام وخطوطه العريضة، ولكنها تمتد إلى كل جوانبه وجزيئاته وتنتشر

في مساحاته كافة.. فإنه ما من جانب من جوانب هذا الفكر؛ اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو تشريعية أو أخلاقية أو ثقافية... إلخ؛ إلّا وهي تتضمن التناسب الباهر بين الثابت والمتحول بما ينسجم ووضع الإنسان في العالم ومطالب حركته التاريخية.

وقد تزيد نسبة الثابت والمتحول هنا لأن طبيعة الحالة تقتضي زيادة هنا ونقصاناً هناك، لكنها في كل الأحوال لن تعدم ذلك التقابل الدائم بين عناصر الثبات والتطور.

إن المرء ليستطيع أن يتخيل المسألة أو يقربها من خلال تصور التخلق الجنيني في الأرحام.. إن المخلوق الجديد يحمل طابعه أو شخصيته المتميزة التي تتبلور بمرور الوقت، من خلال نسب المكونات الوراثية القادمة من حوين الذكر وبويضة الأنثى.

إن هذا التخلق سيحتاج إلى ملايين الخلايا التي تبنيه وتُمَكِّنه من الحياة، وكل مجموعة من الخلايا تتولى بناء جانب من نسيجه وأعضائه، ولكن كل واحدة منها تحمل المكونات نفسها، الخصائص التي تمنحه شخصيته المتميزة التي تفرقه عن الآخرين.

وهكذا فإن كل الجزيئات التي لا حصر لها والتي تسهم في تكوين بنية الفكر الإسلامي المتميز، تحمل في تركيبها، كلّاً على حدة، خصائص الثبات والتحول لكي ما تلبث أن تصب في البناء العام.

ومن خلال هذا التوافق بين ضرورات الحياة البشرية وقوانين الحركة التاريخية وبين معطيات الإنسان، قَدِرَ هذا الدين، وسيظل على أن يكون الاستجابة الأكثر فاعلية وانطباقاً على مقولات الإنسان والتاريخ!

الإنسان أولاً

في عبارة وردت في مذكرات «لويس فيشر» الكاتب الأمريكي اليساري الذي كان يعد نصيراً للاتحاد السوفييتي عبر عشرينيات هذا القرن[1] وثلاثينياته، نلتقي بالبعد الحقيقي للمشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية في جانبها الشيوعي.

وأبادر فأقول بأنها حضارة واحدة، ذات أسس واحدة،ونسيج ذو خيوط واحدة، وربما أهداف مادية واحدة، وليس ثمة من فارق بين الجناحين الرأسمالي والشيوعي سوى في سياستي المال والعلاقات الدولية، أي: استراتيجية العمل على نطاق العالم.

والآن فإننا نجد حتى هذه الفروق تتضاءل يوماً بعد يوم، بل إن نقاط التماس والتشابه تزداد عدداً واتساعاً على خارطة العلاقات الديناميكية بين المعسكرين.

ويبقى نسغ الحضارة الغربية في الجانبين واحداً وإيقاعها واحداً..

يقول «فيشر» وهو يعلق على مشاهداته الميَدانية في الأرض السوفييتية: «لقد بدأ فكري يزعجني، وبدأت أتساءل: ألم أكن أُمَجِّدُ الفولاذ والكيلو وات وأنسى الإنسان؟ إن كل الأحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء

(١) كُتب هذا المقال قبل عام (٢٠٠٠م)، أي: في القرن الماضي. الناشر.

الكهربائي والأنفاق الأرضية التي في الدنيا لا تساوي شيئاً إذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسداً شريراً»[١].

وهذا الاستنتاج الذي يكثِف خبرة أكثر من عقد من الزمن، ويتمخض عن مشاهدات عالم شيوعي بأكمله، ليس جديداً، ونحن نعرف جميعاً ذلك المثل المعروف المنحدر إلينا ـ ربما ـ من عصور اليونان والرومان: «ماذا ينفع الإنسان إذا كسب العالم كله وخسر نفسه؟!».

ويتساءل المرء: هل ثمة «مستحيل» في تحقيق التوازن بين طرفي المعادلة؛ العالم والإنسان؟

ويتساءل للمرة الألف: لماذا يُصِرُّ الغربيون، في النظرية والتطبيق، على مبدأ «إمَّا هذا أو ذاك»؟ إما الإنسان أو العالم؟ لماذا لم يتجاوزوه إلى مبدأ آخر أكثر منطقية وعدلاً: هذا وذاك، العالم والإنسان؟

ها هنا في التجربة التي خبرها «فيشر» واستخلص من خبراتها استنتاجه ذاك، نلتقي بإنتاج متزايد ومتطور للأحذية والفولاذ والجرارات والكتب، وبتوسع مذهل في بناء المدارس والعمارات والمصانع والأنفاق الأرضية، وفي اعتماد الكهرباء.. ولكن أين الإنسان؟

إنَّه يكاد يضيع على خارطة التجربة المكتظة بالمطارق والمداخن، والمصطكة بأزيز المكائن والآلات.

أداة من هذه الأدوات المنتشرة في المدن والأرياف تبذل جهدها المتواصل من أجل إنتاج مساحة أوسع من النسيج، وعدد أكبر من قطع الغيار لتصديرها للخارج.

---

(١) الصنم الذي هوى، لآرثر كوستلر ورفاقه، ص ٢٥٨، ترجمة فؤاد حمودة، الطبعة الثانية، بيروت - ١٩٧٠م.

إنهم يقولون في واحد من شعاراتهم ذوات البريق: «الإنسان أثمن رأسمال» وعلى ما في هذه العبارة من خطيئة بحق الإنسان لأنه لا يمكن أن يكون «رأسمال» بأية صيغة من الصيغ، فإن الذي يحدث يناقض في الأساس هذا الشعار.

فمنذ اللحظة التي يقضى فيها على حرية الإنسان.. منذ اللحظة التي يصير فيها رغيف الخبز بديلاً عن الحرية، منذ اللحظة التي يرغم فيها المواطن على التخلي عن أشواقه ومطامحه، والتنازل عن ملامحه ونسيجه الخاص، والتحول إلى مجرد رقم من الأرقام أو كائن مجرد ينتج ويأكل لكي يواصل مهماته الإنتاجية.. اللحظة التي يسهل أن يحل فيها «س» محل «ر» دون أي تغيير في إيقاع ماكنة الحياة اليومية.. منذ هذه اللحظة يكون الإنسان قد خسر نفسه، حتى لو أنتج في اليوم الواحد ألف زوج من الأحذية، أو نسبح مئة ألف متر من القماش!!

والذي يخسر نفسه لا يمكن أن يساوي شيئاً، فإن الحضارات يصنعها أولئك الذين «يجدون» أنفسهم ويعرفون كيف يضعونها فوق مستوى الماديات والأشياء، أولئك الذين يقدرون في اللحظة المناسبة على اتخاذ القرار الحر الذي يتناسب ودورهم في العالم ككائنات متفردة تعلو على الضرورات وتتجاوز منطق الانقياد الأعمى، والقطيعية والتسطح..

ويعود السؤال الأبدي الذي يطرح نفسه مرة أخرى: «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!».

ويكون الجواب ما سبق وأن قاله «فيشر» وهو يتجول في أنحاء العالم الجديد الذي قيل: إنَّه يبنى من أجل الإنسان: «إن كل الأحذية والمدارس والكتب والجرارات والضوء الكهربائي والأنفاق الأرضية التي في الدنيا، لا تساوي شيئاً إذا كان الجهاز الذي ينتجها فاسداً شريراً».

البذرة والبستان الأخضر

كما أنَّ الصراع وتأجيجه كلما أوشكت ناره أن تخبو، يعد ضرورة من ضرورات العمل الدرامي من أجل تحريكه ومنحه الحيوية والإثارة، فكذلك هو ضرورة من ضرورات الحياة البشرية نفسها، بما أن الدراما هي محاولة لمحاكاة هذه الحياة، أو عرض عينات منها بصيغة العمل المسرحي.

ولقد كان وضع إبليس منذ لحظة الخلق الأولى قبالة آدم في التحدي والمعارضة، يحمل هذا المعنى؛ بذر الصراع في صميم التجربة التي ستخوضها البشرية على ساحة العالم، وتحريك هذه التجربة بسلسلة متصلة الحلقات من الأفعال وردود الأفعال بين الإنسان والشيطان.

إن قوى الشر والضلال التي هي امتداد للوجود الشيطاني قبالة الإنسان تحمل مغزاها الواضح على هذا الضوء؛ استفزاز الإنسان باستمرار ودفعه إلى مواقع الفاعلية، والتشكل، والمجابهة، والتغيير.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا التقابل الدرامي، القائم على الصراع، في اتجاهيه العمقي والأفقي.

فهنالك صراع بين الإنسان ونفسه لمجابهة قوى الشر التي تستفزه من الداخل، وهنالك صراع بين الإنسان وبيئته لمجابهة قوى الضلال التي تتحدَّاه من الخارج.

وفي الحالتين تتحرك الحياة البشرية وتتجاوز مواقع السكون إلى التشكل المستمر والصيرورة المبدعة.

وفي الحالة الأولى يقود الصراع إلى التغيير الذاتي الذي يبعث الإنسان القدير على الفعل والإنجاز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وفي الحالة الثانية يقود الصراع إلى تغيير العالم من أجل خلق الأرضية التي تليق بالإنسان: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولنتصور حياة بشرية تخلو من الصراع.. حياة لا أبالسة فيها ولا شياطين.. حياة ينعدم فيها الشر والضلال.. حياة لا إثارة فيها ولا حركة ولا حوار بين الأفعال وردودها.. أتُراها حينذاك تعدو أن تكون بحيرة راكدة؟ وهل تكون حينذاك جديرة بأن تُعاشَ حقاً؟

وكيف يتحقق الفعل الحضاري والنمو العمراني إن لم يجد الإنسان نفسه يكافح القوى التي تستفزه وتتحداه وتقف في طريقه؟!

إن (تشكل) الحضارات أساساً جاء ـ فيما يصل إليه «توينبي» عَبْر استقرائه لتاريخ البشرية ـ وليد هذا التقابل الذي يصطرع فيه الإنسان مع خصومه على كافة المستويات، وإنه ليقف طويلاً في بدء تحليله الواسع عند قضية الخلق ودور الشيطان في خارطة العالم الذي سيهبط إليه الإنسان، يقف طويلاً لأنه يدرك جيداً بأن خلق الشيطان منذ تلك اللحظات الأولى يحمل مغزاه الذي سينسحب فيما بعد على مدى التاريخ البشري.

ولنا أن نتصور سخف الدعوة الساذجة التي تأسف على أن الإنسان لم يُخْلق في عالم لا أبالسة فيه ولا شر ولا ضلال.. عالم يتمحض بالخير والفضيلة، ويعفى فيه الإنسان من الصراع والعناء.

إن «توينبي» نفسه يعتبر هذه الحالة التي وضع يده على بعض أنماطها في هذه الجهة أو تلك من العالم، أمراً استثنائياً نقيضاً للوضع الطبيعي المناسب

لموقع الإنسان ودوره، لأنه وجد تلك الحالات تقود إلى الاستسلام والاتكالية والسكون والبدائية، ولا تبشر بأية بادرة للفعل والتحقق الحضاريين.

فلابد من التحديات، لابد من قوى الشد والإعاقة، لا بد من الأبالسة والشياطين.. من الشر والضلال.. من التعاسة والشقاء، لكي يُستَفَزَّ الإنسان ويتحرك للاستجابة.. فبهذه الاستجابة سيتفوق ويصنع حضارته المتألقة..

لقد بُعِثَ الإنسان لكي يصنع مصيره بفعله الخاص لا بمعجزة تأتيه من السماء.. بمدى قدرته على الإمساك جيداً بتعاليم السماء، والسير على هدى الأديان لصياغة عالم يليق به: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٦-٣٩].

ولن يتأتى ذلك بطبيعة الحال والإنسان قاعد مستريح لا يصارع ولا يقاوم ولا يبذل جهداً من أجل حماية انتمائه الديني، وتنفيذ مقولاته على ساحة الأرض، ولن يكون هناك صراع أو مقاومة، أو حركة أو تقدم، ما لم يكن نسيج العالم مزروعاً بالأبالسة، والشياطين وقوى الشر والتعاسة والضلال...

الاصطراع مع المرأة

مرة أخرى مع «المرأة».

والأمر لا يقتضي هذا الإلحاح لو أن الأمور سارت وفق مجراها الطبيعي، وأخذت هذه الكائنة الفريدة، المتميزة، مكانها المرسوم في خلق الله وتصميمه المعجز للحياة والأشياء..

ولكنهم أرغموها، بشكل أو بآخر لكي تخرج عن مكانها فتضل وتضيع وتصبح مشكلة تزداد مع الأيام تعقيداً، بينما هم يتصورون أنهم قد وجدوا لها حلاً!

إننا نتذكر هنا تلك العبارة الذكية التي استعملها الناقد الإنكليزي «جون سترايتشي» في كتابه «الصرخة المختنقة» وهو يناقش رواية «باسترناك» الشهيرة «دكتور زيفاغو»، ويضع يده على عناصر الارتطام بين معطياتها وبين نسيج التجربة الماركسية.

والعبارة هي «الاصطراع مع التاريخ».. وباختصار فإن الماركسية، شأنها شأن العديد من المذاهب الوضعية، جعلت نفسها في حالة اصطراع مع التاريخ، لا وفاق معه.. اصطراع مع التاريخ بمعنى الوقوف ضد قيمه وبداهاته وأقانيمه ومؤسساته التي أجمعت عليها الأمم والشعوب والحضارات وغدت بمثابة أحجار الزاوية لكل نشاط حضاري يمارسه الإنسان.

والتاريخ هنا يعني الخبرة البشرية المنبثقة عن تركيب الإنسان وفطرته ومطامحه، وميوله وأشواقه وقدراته، المتوافقة معها.

لقد بذلت الماركسية جهداً مضاعفاً من أجل تحقيق انتصارها على البداهات؛ لا لشيء إلا لأن «ماركس» ورفيقه «أنغلز» استنتجا نوعاً من الارتباط الميكانيكي بين هذه الخبرات وبين التركيب الطبقي للمجتمعات البشرية.

وفي هذه المعركة انتصر المذهب بصيغ القسر مرة، وانهزم أمام الخبرات الأكثر حركية وعمقاً ودواماً، مرات.. ولكن الإنسان كان في كل الأحوال هو المنهزم على حساب المذهب..

هذا ما أرادت الرواية أن تقوله كما يتصور «سترايتشي» من خلال تعبيره ذاك «الاصطراع مع التاريخ».

ويبدو أنَّ المسألة تنسحب على الموقف الغربي عموماً من المرأة.. هذا الموقف الذي سعى المقلدون الشرقيون إلى جره إلى الساحة الإسلامية، وإرغام المرأة على أن تمثل الدور نفسه.

إنهم باصطراعهم مع وظيفة المرأة الطبيعية المصممة على حجمها، والمنسجمة مع فطرتها وتركيبها وقدراتها، قد اختاروا الارتطام بواحدة من الحقائق الأساسية للتاريخ البشري، وهم عَبْر معاركهم التي لا مبرر لها كسبوا مرة وخسروا مرات، ولكن المرأة بالذات خرجت في معظم الأحيان مهزومة تلعق المرارات، رغم ما يبدو في الظاهر من بريق يُغْشِي عيون من لا يقدرون على التبصر بحقائق الأمور. دعونا نتسائل: هل بمقدور قوة في العالم أن تحقق المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة؟

والجواب: كلا.. بطبيعة الحال، لأن هناك في تصميم الكائنين من الفروق النوعية على كافة المستويات الجسدية والفسيولوجية والنفسية والعاطفية ما يجعل الأمر مستحيلاً. ولكن لنتصور أن الأمر تحقق، فهل يمثل كسباً حقيقياً للإنسان؟ والجواب مرة أخرى: كلا!

لأن المساواة المطلقة حتى على مستوى الموقع الاجتماعي للجنس الواحد أمرٌ يناقض مفهوم العدالة من أساسه، فليست المسألة عملية حسابية أو رياضية لكي تحقق التطابق بين المساحات أو التعادل بين الأرقام. إنها أعقد بكثير، وأصعب بكثير.. وهي تتضمن شبكة من المنحنيات وخطوط التعارض، التي تجعل أية محاولة لتنفيذ مساواة رقمية غير ممكنة أساساً، وإذا ما حدث وأن اعتمدت صيغ القسر والإرغام كانت النتيجة سلباً.. كانت بمثابة دمار للإنسان وضياع لقيم العدل في أبعادها الإنسانية المعقدة، المركبة الشاملة.. فكيف بالمساواة التامة، أو المطلقة بين الرجل والمرأة؟!

لاشك أن معطيات الواقع المنظور أشد ثقلاً وإلزاماً من تحليلات المذهب النظري واستنتاجاته، وقد أكد الواقع المرة تلو الأخرى أن ما يحاوله الغربي في هذا الصدد لا يعدو أن يكون خطيئة بحق الإنسان، ثم ما يلبث أن يجد نفسه ملزماً بالرجوع إلى المنطلقات الأساسية التي تَمَرَّدَ عليها واصطرع معها.

إنها واحدة من أشد الأزمات التي يعانيها المذهب الوضعي؛ الاصطراع مع التاريخ.. إعلان الحرب على فطرة الإنسان ومؤسساته الحضارية وخبراته الأساسية وتركيبه الفذ المتفرد، ومحاولة صياغة «إنسان» آخر ذي فطرة مغايرة وخبرات جديدة وغريبة.. وهذا لن يتأتى ولن يكون.

وفي مقابل هذا تبدو واحدة من جوانب الإعجاز والتصميم الفذ للإسلام؛ إنها الوفاق مع التاريخ والإنسان، التطابق الباهر بين العقيدة وبين صيغ الخبرة التاريخية وفطرة الإنسان.

فإذا ما حدث وأن خسر الغربيون مرة واحدة وهم يحاولون إعادة صياغة

المرأة، فإننا هنا في عالم الإسلام سنخسر مرتين، لأننا كمن يضحي بصيغة التوافق الصحيحة المرسومة بدقة وإعجاز، ويستبدل بها صيغة اصطراع خاطئ قد تضيع معه المرأة المسلمة، والرجل بطبيعة الحال.

البحث عن الخلفية

يتساءل المرء أحياناً، لماذا يجد «الغربي» الاستعداد التام للتعاطف مع اليهود، حتى بعد ممارساتهم اللاإنسانية في فلسطين؟

أهو مجرد رد فعل إزاء موقف النازية من هؤلاء، ذلك الموقف الذي بولغ فيه، وفق سياسات مرسومة، لكي تبنى عليه مكاسب مستقبلية لبني إسرائيل ليس قيام إسرائيل إلا واحدة منها؟

إن تفسير التعاطف بكونه مجرد رد فعل للاضطهاد النازي لا يكفي، لأنه إذا منحنا القناعة بالنسبة لحشود الأوربيين العاديين التي قد تتحكم عواطفهم في تصرفاتهم ومواقفهم وأحكامهم، فإنه غير مقنع البتة بالنسبة لسلوك مفكري الغرب، بل نخبة مفكريهم إذا أردنا الدقة.

لن يكون مقبولاً بحال أن ينساق هؤلاء وراء عواطفهم، وألا يكون لديهم العقل المتبصِّر الذي يكشف لهم عن الأسود والأبيض، عبر مساحات التجربة كلها..

لن يكون معقولاً أن تستسلم العقول الغربية الكبيرة لسلطان رد الفعل إلى الحد الذي يجعلها تقع في التناقض عندما توافِق، بل عندما تعلن ارتياحها وتأييدها، للاضطهاد نفسه، يمارسه اليهود هذه المرة ضد شعب عربي مسلم شاءت القوى الاستعمارية الكبرى أن يكون مشرداً في الأرض، مستضعفاً، وأن تكون العلاقة بينه وبين يهود العالم في صيغة أشد قسوة بكثير، مما كانت عليه الحال بين النازي واليهودي!

تُرى كم من المفكرين الغربيين قدروا على إدراك حدود الأسود والأبيض، والتزموا موقفاً إنسانياً لمجابهة الأسود وملاحقته، بغض النظر عن الجماعة، أو الشعب، أو الأمة، التي تقف هنا أو هناك؟

قلة قليلة لا تكاد تتجاوز أصابع اليدين، والأكثرية الساحقة من المفكرين الغربيين اندفعوا في السياق الخاطئ فظلوا يتعاطفون مع اليهود حتى وهم «يحولون» عقدة الاضطهاد النازي إلى سوط أبدي يدمي ظهور الفلسطينيين في كل مكان، ويسعى إلى إبادتهم واستئصالهم.

إن المرء ليتساءل ـ كذلك ـ عن موقف هؤلاء المفكرين من صيغ اضطهاد شتى نزلت بشعوب أخرى.. نفذها الأقوياء بالضعفاء، ومارستها القوى الاستعمارية التي كانت تمسك يوماً بزمام العالم وتتحكم بمصائر شعوبه وأممه؟

قلة قليلة جداً رفعت صوتها على استحياء بمواجهة ممارسات الاضطهاد الجماعي هذه والتي لا يكاد يحصيها عَدٌّ على مدى القرن ونصف القرن.

وظلت الأكثرية الساحقة ملتزمة الصمت إزاء ما يجري على ساحة العالم من ممارسات لا يقرها شرع ولا قانون ولا إنسان!! بل إن بعض هؤلاء المفكرين وضع فكره وقلمه لكي يكونا أداة بيد القيادات الاستعمارية لتبرير جرائمها، وإضفاء طابع عقلاني مقبول على ممارساتها بحق الإنسان!!

لماذا؟ مرة أخرى، أليس هو الاضطهاد الذي يفوق ما فعله النازيون بحسابات الكم والنوع؟

فأين هو رد الفعل؟ أين هو التعاطف مع المغلوبين والمظلومين؟

ويتذكر المرء بأنه ما من تظاهرة خرجت يوماً لكي تجوب شوارع هذه المدينة أو تلك من أوربا وأمريكا، معلنة تأييدها للممارسات اليهودية، صَابَّةً

غضبها على الضحايا، إلا وكانت تضم عدداً لا يستهان به من رجال الفكر هناك بما فيهم أولئك الذين خُدِعَ معظم مثقفينا بهم، وانساقوا وراء دعاواهم الإنسانية وحولوا أقلامهم وعقولهم إلى أدوات صغيرة لخدمة هذه الدعاوى، وتدمير كل ما يقف في طريقها من قيم دينية أو أخلاقية.. ثم إذا بهم يفاجؤون بأن آلهتهم تلك، قد خرجت من معابدها لكي تمنح بركاتها لبني إسرائيل، وتصب ويلها وغضبها على كل كائن يقف في طريق أهدافهم المرسومة، مهما كانت الأهداف.

ثمة إضاءة خاطفة قد تمنح المتسائلين ما يقنعهم بحقيقة الأسباب.. إضاءة قد لا يتسع المجال لأكثر من طرحها بصيغة سؤال، ولكنه سؤال يتضمن ـ أغلب الظن ـ البعد الحقيقي لهذه الظاهرة الملتوية التي يبدو أنها تستعصي على التحليل.

ألا يتحتم أن نبحث عن الخلفية الصليبية التي يتحرك العقل الغربي في مجالاتها لكي نكشف عن حقيقة الأسباب؟

الخلفية الصليبية؛ عادات وتوجهات، وممارسات، وإسقاطات نفسية، وتقاليد ثقافية؟

الخلفية الصليبية كموقف نهائي يدفع الغربي حتى ولو كان في الظاهر من خصوم النصرانية، إلى اتخاذ هذه الصيغة؛ التعاطف مع المظلوم إذا كان يهودياً، والتزام الصمت، أو حتى الارتياح و التأييد، إذا كان المظلوم عربياً مسلماً.. وإلَّا فما هي الأسباب؟!




ويل للمصلين

لا تزال تلح علي رغم انقضاء سنن وسنين، صورة ذلك الأستاذ الدكتور المتخصص في التاريخ الإسلامي، يقف محاضراً أمام جمع من الحضور، فيهزه الانفعال والامتعاض ويتطاير الرذاذ من فمه وهو يصرخ: أهي إنسانية هذه التي ينادي بها القرآن؟ ما ذنب الأعراب الكادحين كي يصب عليهم جام غضبه، ويدمغهم بالكفر والمروق والنفاق، ويدعو إلى مقاطعتهم ثقافياً وعدم السماح بتعليمهم أصول الدين ومبادئه؟ وراح يتلو ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

وعبثاً حاول المستمعون إقناعه بخطأ استنتاجه، عبثاً حاولوا تهدئته وَوَقْفَ رشاش الرذاذ المتطاير من فمه.. وانتهت المحاضرة وهو يردد العبارات إياها.

ولو أنه صبر قليلاً، والصبر على القراءة أقل ما يقتضيه التخصص من أخلاق، واطلع على «أسباب نزول» الآية المذكورة وفهم ما تعنيه عبارة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾، ولو أنه واصل قراءة الآيات التالية، لعرف أن غضبه الجارف ليس له ما يبرره على الإطلاق.

تلوت عليه، دون أن يعيرني أذناً صاغية هذه الآيات: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ٩٨-١٠٤].

قلت له معقباً: ها هو القرآن الكريم يعرض علينا قطاعات الأعراب الثلاثة.. يسلط ضوءه على هذه العينة الاجتماعية في كافة أبعادها ومساحاتها...

ولكن يبدو أن الرجل حُمِّلَ وهو يدرس «هناك» هذه الرؤية الأحادية قصيرة النفس، وكان عليه أن يوصلها بأمانة وإتقان، وإلَّا اضطر أساتذته «هناك» إلى سحب صفة «العلمية» التي منحوها إياه!.. بعد مغادرة القاعة لحقت به، حاولت أن أمزج معه الجد بالهزل لعلي أصل إلى نتيجة بعد إذ عجز الجد وحده عنها. سألته: أصحيح ما يردده الناس من أن القرآن قد شن حملة قاسية على المصلين وتوعدهم بالويل والثبور؟

قال وهو يفتح حقيبته الفارهة على منضدة مجاورة لكي يضع فيها رزمة من كتب لا أعتقد أنه قد قرأ منها شيئاً: لا يمكنِ؛ لأن معنى هذا أن القرآن يناقض نفسه.

- كيف؟

- ألم يقل في إحدى آياته بأن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً؟

- بكل تأكيد.. ولكن الحملة هنا منصبة على المصلين أنفسهم.

ـ أتعني المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى؟

ـ إنني أعني ما أقول. . المصلين. . وليسوا المنافقين.

ـ هات الدليل. . .

ـ ويل للمصلين!

وكأنَّ الرجل، وقد تلاشت الابتسامة في وجهه، أحسَّ بقصدي.

فأجابني بعصبية:

ـ ليس هذا وقت المزاح.

ـ ولكنك أنت الذي بدأت المزاح!

ـ أرجوك، لقد كنت ألقي محاضرة جادة.

ـ عفواً فقد اعتقدت أنك تمزح وأنت تتحدث بعصبية عن تنديد القرآن بالأعراب. .

ـ لم أقل إلَّا جداً. .

ـ فلماذا تتهمني ها هنا بالمزاح؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ الحملة التي شنها القرآن على المصلين. .

ـ لا تحاول أن تمزج الجد بالهزل، ثم إنني مرهق وليس لدي استعداد للمزاح.

ـ أبداً، وكم كنت أتمنى ألَّا يكون لديك هذا الاستعداد حتى وإنْ كنت تلقي محاضرتك.

ـ ها قد عدنا من حيث بدأنا. .

ـ يا أخي.. إنَّ إعلانك بأن القرآن قد ندد بالأعراب هو كإعلاني بأنه ندد بالمصلين.. ولو أنك تريثت قليلاً وواصلت تلاوة الشاهد القرآني لغيرت وجهة نظرك تماماً، كما أن عبارة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] لا تعبِّرُ عن معنى نهائي إلا بعد ربطها بما يليها.. بأن الذين ينصب الويل عليهم هم أولئك الذين يسهون عن الصلاة.. وشتان.. إنها «لعبة» الاقتطاع القسري للشاهد.. انتزاعه من بيئته وسياقه لكي يخدم وجهة نظر ما قد تكون مغايرة تماماً للهدف النهائي من إيراده..

فإذا كانت اللعبة متعمدة وُصِمَتْ بالخبث والمكر، وسُمِّيَ صاحبها بالخبيث الماكر، وإذا كانت غير متعمدة وصمت بالجهل والغفلة وسمي صاحبها بالجاهل الغافل، وإني أربأ بك أن تكون أحدهما..

لم يجبني الرجل.. ومضى لا يلوي على شيء!!




وجهة نظر

الذي يقرأ بعض الروايات ويشاهد عدداً من المسلسلات التلفزيونية يعجب لهذا التقابل المفتعل بين المحامي والمدعي العام، وكأنه قد كتب عليهما أن يقف أحدهما قبالة الآخر وكأنهما خصمان أبديان لا يمكن أن يلتقيا.

حتى لقد أصبح من قبيل المسلمات ـ الخاطئة ـ أن يفند أحدهما أدلة الآخر، ويهدم كل حججه حتى ولو كان بعضها على الأقل مصيباً، وحتى ولو كان أحد الطرفين مقتنعاً ـ في باطنه ـ بوجهة نظر «خصمه» أو «غريمه» في هذه المسألة أو تلك.

يقوم المدعي العام لكي يلقي خطابه التقليدي بلهجة هجومية تحمل مغزاها الواضح، وينهض المحامي لكي يستغرق نفسه وموكله في مجابهة دراماتيكية مع المدعي العام.. ويستفز هذا بين الحين والآخر فيقف ويطلب الإذن من الحاكم ويطالبه بوقف المحامي عن الاستمرار في طرح أسئلته الاستفزازية.

والحاكم، الذي يتحتم أن يكون رحى الدائرة ومركز القضية، يدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويتدخل بين لحظة وأخرى للتخفيف من حدة الصراخ وعنف الكلمات المتبادلة بين المدعي العام والمحامي، أو لوقف تدهور الموقف أكثر مما يجب، أو لتحقيق نوع من التفاهم بينهما.

والمتهم يعتقد منذ اللحظة الأولى أنه يجابه خصماً لدوداً، متمثلاً بشخص المدعي العام، وأن محاميه إن قدر على التفوق عليه واكتساحه فقد ربح القضية ونجا من العقاب!

والمشاهدون يتابعون الأمر باهتمام بالغ رغبة في الكشف عن الحقيقة. حيناً، واندفاعاً ـ حيناً آخر ـ بنوع من الفضول، والتشفي ـ ربما ـ بهذا الرجل أو ذاك من المتنازلين في الحلبة، المدعي العام أو المحامي.

ألا يقتضي منطق العدل نفسه تقليداً إجرائياً آخر غير هذا التقليد ذي الصيغة الخاطئة؛ تحول الطرفين معاً، المدعي العام والمحامي، إلى رجلي بحث عن الحقيقة، جنباً إلى جنب مع الحاكم، ليس بالصراع وتبادل اللكمات، ولكن بالتفاهم والتعاون وبذل الجهد المشترك، الجهد المخلص الذي يعتمد على الأساليب الموضوعية للتوصل إلى الحقيقة المغيبة عن الأنظار؟

صحيح أن المحامي مكلف ابتداء بالدفاع عن المتهم، وصحيح أن المدعي العام مكلف ابتداء بالدفاع عن الحق العام، ولكن من قال بأن هذه الصيغة مسألة أبدية، أو أمر مقدس لا يمكن بحال تجاوزه حتى ولو اقتضى الحق والعدل نفساهما ذلك؟

ألا يمكن أن يعين المحامي المدعي العام في جانب ما من المسألة، يجد بين يديه من الوثائق والوقائع والمستندات، ما يؤكدها ويزيدها إضاءة، وأن يفعل المدعي العام الشيء نفسه، إذا كان التصرف في كلتا الحالتين سبيلاً للوصول إلى الحقيقة؛ سواء كانت لصالح المتهم أم لصالح الحق العام؟

قد يقول قائل: إن مهمة المحامي تكمَن أساساً في إنقاذ المتهم من التهمة التي رُمي بها حتى وإن كان قد اقترفها فعلاً، وفي إخفاء كل الأدلة التي تدينه، والتفنن في تزييفها، وتحويلها إذا اقتضى الأمر إلى أداة نفي، وبالمقابل يجد المدعي العام نفسه مسوقاً برد الفعل، للفعل الخاطئ نفسه، إلى التشبث بموقفه، والسعي بكل الأساليب للإيقاع بالمتهم حتى ولو وقع

في يديه من الأدلة والإثباتات ما ينفي عن المتهم التهمة التي أُلصقت به، أو يشككك بها على الأقل. وهو ـ أي: المدعي العام ـ يحس في طبقة ما من وعيه أنه يجابه المحامي وحججه ويسعى للتفوق عليه، وإلّا فهي الهزيمة التي لا تشرفه بحال.

والجواب هو أن المعضلة تكمن في الصيغة القائمة منذ عهد بعيد، في النزعة المنفعية الصرفة التي تدفع بالمحامي ـ أحياناً ـ إلى تنفيذ مهمته دون نظر إلى الوازع الأخلاقي ودون اكتراث للحقيقة النهائية.

وهكذا نجد كيف تكون الممارسة القضائية في الإسلام، برؤيتها الإيمانية، بمرونتها وأخلاقياتها وانفتاحها، والتزامها بالقيم الخلقية، وتلهفها على الخطيئة، وصيغها الإجرائية غير المقفلة.. نجد كيف تكون هذه الممارسة البديل الصحيح، المقنع، لهذه الحقيقة التي تمارس في أروقة العدالة منذ زمن بعيد.

ونجد كيف أن فكرة (المحاماة) بصيغتها أحادية الجانب هذه، هي بمثابة تقليد قدم إلينا من أوربة المنفعية، وأننا لسنا ملزمين ألبتة بالأخذ به لأنه في بعض أشكاله قد يخالف قيمنا وقناعاتنا وممارساتنا، بل قد يرتطم بها.

وكلنا يذكر ـ على سبيل المثال ـ ما كان يفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سوح القضاء، والتقاليد الإنسانية العادلة التي صاغها على هدي دينه الكريم لكي تكون معالم بارزة على الطريق المضني الطويل للبحث عن الحقيقة، ولملاحقة الجريمة، ولإنصاف المظلومين من الظالمين.

وكلنا يعرف كيف كان رضي الله عنه، وغيره من رجالات الإسلام على مدار التاريخ، مستعدين للتراجع عن قراراتهم النهائية في كل لحظة إذا تبين لهم وجه جديد من القضية قد يعينهم على التوصل إلى الحق.

إنها المرونة التي تتجاوز التشنج على الأحكام الأخيرة والتشبث بالإجراءات الخاطئة من أجل شيء أكبر بكثير وأهم بكثير.. ألا وهو الحقيقة..

ويمكن للإنسان أنْ يتشبث بأي تقليد ويتشنج عليه ـ إذا اقتضى الأمر ـ إلّا ان يأتي ذلك على حساب الحق والعدل.. تلك الأهداف العزيزة التي يتعشقها الكل ويذود عنها الجميع..




الإيمان..
تلك المنارة المضيئة

يسيطر التشاؤم ـ أحياناً ـ على حشد ليس بالقليل من المؤمنين، وهم ينظرون إلى معطيات العصر الراهن ومعادلاته تتحرك باتجاه مضاد للإيمان، بدءاً من صيغ الدمار والتحلل الخلقي، وانتهاء بالنظريات والمذاهب والعقائد التي ترفض الإيمان، وتلغيه من الحساب، تسندها في ذلك المؤسسات والنظم والحكومات.

وهم يقولون بأن ضغوط التيارات المضادة للإيمان هائلة حقاً، ساحقة بمعنى الكلمة، وهي تسعى بإصرار وحماس إلى جر المؤمنين كافة إلى هاوية التفكك والتحلل والإلحاد..

ولكن هؤلاء لا ينسون أن الإيمان يمتلك من نقاط الجذب والقوة وعناصر التحصن والصمود، والقدرة على التأثير والكسب ما يجعله ـ بحق ـ يقدر على مجابهة تلك الضغوط المضادة، يوازيها أحياناً، ويتفوق عليها أحياناً أخرى، ويمضي من ثم إلى هدفه، غير مكترث بكل عوامل الإعاقة التي تضعها في طريقه معطيات العصر وفلسفاته ونظمه ومؤسساته وسلطاته، جاذباً إليه باستمرار، العناصر الشابة، مانحاً إياها الثقة والتوازن واليقين الذي ما حصلت على عشر معشاره وهي تتخبط هناك..

وحقيقة «الآخرة» وما يرتبط بها من «بعث» و «حساب»، ثم «عقاب» و«ثواب» لهي واحدة من أشد نقاط القوة والتأثير والجذب في بنية الإيمان.

وإنه لتقابل مؤثر محسوب لصالح الإيمان.. تقابل بين الخلود وبين دنيا فانية، زائلة تؤكد الأيام تفاهتها، وانحسارها، وعدم قدرتها على منح السعادة الحقيقية للإنسان.

تقابل بين النعيم والجحيم.. بين الجنة والنار.. بين رضا الله سبحانه وثوابه وبين سخطه وعقابه..

والإنسان الذي يملك ذرة من ذكاء يجد نفسه إزاء هذا التقابل بين الأبدي والفاني، والامتداد والانقطاع، والنور والظلمة، والله والطاغوت، مندفعاً لاختيار الموقع الأول الذي يتحقق من خلاله بما لا يمنحه إياه الموقع الثاني المُتْرَع بالملذات العابرة الرخيصة، المنصرمة والتي لا تخلف وراءها سوى التعاسة والمرارات.

وليس هذا من قبيل الكلام الذي يقال لكي تتعزى به النفوس المتشائمة، ولكنه التجربة المتحققة والواقع المشهود في كل مكان وزمان، بل في عصرنا هذا الذي يتميز بحصاره القاسي لمواقع الإيمان، ومطارداته العنيفة الشرسة للمؤمنين.

فبنظرة عابرة إلى الجوامع والمساجد، عَبْر واحدة من الصلوات الخمس، يمكن للمرء أن يلتقي بحشود من هؤلاء الذين تجاوزوا مواقعهم الدنيوية، رغم بهرجتها وإغرائها، وأووا أخيراً إلى حظيرة الإيمان..

كيف، ولماذا، وهم بعد في عز الشباب حيث يخيل للإنسان أن الدنيا لا تزال بعد تَعِدُ بالكثير، وإن التفكير بالآخرة لم يأن أوانه بعد؟

والجواب يَكْمُنُ، ببساطة ووضوح يصلان حد التألق، فيما يملكه الإيمان بمواجهة تحلل العصر وضياعه،وفيما يقدر على تقديمه في دنيا أخذت تقدم هي الأخرى الكثير، بعد أن أمدتها الحضارة المعاصرة بألف فرصة وفرصة لتقديم هذا الكثير.

والحق أن الإيمان يثبت يوماً بعد يوم أنه لا يقل قدرة على العطاء، إن لم يفق ما تقدمه الدنيا، وكل الذين يتذرعون بها لوقف حركة الإيمان في العالم.

إن زمننا الحديث، رغم فرصه ومتعه وملذاته، ورغم الأردية والديكورات المثيرة التي يتقدم بها للإنسان كي يضله ويغويه، فإنه يسلط في الوقت نفسه من الضغوط التي تتميز بالعنف والقسوة ما يستل من الإنسان كل فرص السعادة ويسوقه إلى التمزق والتفتت والدمار.

ويجيء الإيمان لكي يعد الحيارى والضائعين باسترداد توحدهم المفقود، ولكي يقدم لهم ـ فيما يقدمه ـ التوازن والأمل والاطمئنان واليقين. .

يجيء لكي يفرمل اندفاعهم المجنون؛ فلا يتهافتون كالذباب على كل ذي لزوجة ويموتون هناك متخمين، ضائعين. . لكي يقول لهم: هذا حلال وهذا حرام، فيحفظ طاقاتهم، ويكفهم عن اللهاث الأعمى وراء الملذات. .

يجيء لكي يقودهم ثانية إلى حمى الله، إلى أمنه ومحبته وخشيته ورضاه، فيمنحهم الفرح الحقيقي والسعادة التي تعلو على السعادات.

وإنها ـ بحق ـ لنقاط جذب مشعة لايمكن لقوة في الأرض أن تطفئ نورها المتألق، أو تعتم على جمرها المتوقد.

وبمواجهة ألف من ضغوط العصر الحديث، بمواجهة كل عوامل الارتداد، والتحلل، والإلحاد، يقف الإيمان منارة مضيئة وسط ظلمة العالم لكي يدل الحيارى والتائهين على الطريق.

ولحسن الحظ فإن غريزة حماية الذات، وتطمين المستقبل البعيد، لا تزال، وستظل، تعمل عملها في سلوك الإنسان.

وهي التي تقول له: إنك إذا أردت ألّا تضيع إلى الأبد، فعليك بالمنارة التي على هدي ضوئها المتألق تنجو من الهلاك!

الوقوف مع الله

فرق كبير بين الوقوف ـ متّحدين ـ مع الله وبين الوقوف في تَحَدٍّ معه جل جلاله!

الأديان السماوية جاءت لكي تضع الإنسان والبشرية في الحالة الأولى، والمذاهب الوضعية، في أغلبها، استهدفت وضعهما في الحالة الثانية.

والحالة الأولى تعني بوضوح ربط أسباب الإنسان الفاني بالخلود، ومد رؤيته لكي تكون بالمدى الذي يليق به كإنسان ومنحه القدرة المتفوقة المستمدة من إرادة الله، ووضعه في حالة وفاق مع سنن العالم ونواميس الكون والوجود، ولمّ شتات نفسه وتمكينه من التحقق بالوحدة والانسجام، واستئصال بذور السلبية واليأس من أعماقه ودفعه إلى ساحة العالم مطمئناً، متفائلاً، فاعلاً وسعيداً..

والحالة الثانية تعني ـ بوضوح كذلك ـ تقطيع الأسباب بين الإنسان وبين السماء، وتضييق الخناق على رؤيته إلى المدى الذي يحيله إلى ما يشبه الحشرات التي لا تعرف غير تأمين حاجاتها الغذائية، وتمتين مساكنها كي لا يقتلعها البرد والجوع!!

وتعني الحد من قدراته الفاعلة من خلال وضعه في حالة تضاد وتصادم مع سنن العالم ونواميس الكون والوجود.

وتعني تدمير توحده النفسي وانتمائه الذاتي، وشله بعوامل اليأس والسلبية، ودفعه إلى العالم خائفاً، قلقاً متشائماً، مشتتاً وتعيساً..

فرق كبير والحق يقال.. ولن تَغُرَّنَا الظاهرة الخادعة التي توحي ـ اليوم على وجه الخصوص ـ بانحسار المؤمنين على كل المستويات، وانتشار أتباع المذاهب الوضعية وتمكّنهم في الأرض.

فما هي إلا القشور التي تحجب العفن والتفكك والفساد الذي ينخر في الداخل، وتغطي على القلق والخوف والتمزق واليأس الذي يُحْكِمُ قبضته على خناق الإنسان الذي لم يقدر على تجاوز الكفر صوب الإيمان.

وهؤلاء «الأتباع» هم الذين يقولون هذا ويعيدون فيه القول دراسات وأبحاثاً وكتباً وتقارير ومناقشات وندوات وخطباً.. وهم ليسوا بالناس العاديين، ولكنهم زبدة المجتمعات وطلائعهم المتفوقة عقلياً، ومن ثم فإن شهاداتهم تحمل قيمتها ابتداء..

وليس هنا بطبيعة الحال مجال استعراض هذه الشهادات، ولكننا نشير إليها مجرد إشارة للتدليل على صدق المقولة التي تصدرت هذه الكلمات.

إن ثمة خسارة كبيرة تلحق بالإنسان عندما يختار أن يكون في موضع المتحدّي لله سبحانه.. طبعاً فإن الله جل جلاله لن يضيره أن تقف البشرية كلها متحدية إياه، ولن يزيد في ملكه أن تقف البشرية كلها معه!!

والحديث القدسي الشريف واضح الدلالة في هذا المجال: (.. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل في البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها..)[١].

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر: صحيح مسلم باب تحريم الظلم: ٤ / ١٩٩٤، ١٩٩٥.

ولكن الربح والخسارة إذا جاز لنا أن نستخدم مصطلحات التجارة ستلحق بالإنسان نفسه.

ومن أجل ألّا يضيع الإنسان ويخسر نفسه، بل من أجل ألّايخسر دنياه قبل آخرته، جاءت الأديان لكي تدله على الحقيقة وتقوده عبر الطريق الطويل، وكان الهدف النهائي لهذه الأديان جميعاً ومحصلتها الأخيرة أن تحرر الإنسان من قبضة الأرباب والكهنة والطواغيت الذين يسعون من خلال وضعه في حالة تحدٍّ مع الله إلى استعباده، ومن ثم تدميره كي يغدو أداة طيعة في أيديهم، ووسيلة مجرد وسيلة، لتطمين مصالحهم ونوازعهم.

جاءت الأديان لكي تحرره، وتعيده إلى الوضع الصحيح العادل المنبثق عن طبيعة وجوده في الأرض ومهمته في العالم؛ الوقوف مع الله، مع تعاليمه، مع سننه في العالم، مع نواميس الكون والوجود.

وحينذاك يتحّقق الإنسان بالتوافق المنشود مع الخلائق والموجودات، وقبل ذلك يتحقق بالتوافق المرتجى مع ذاته، ومع غيره من بني آدم على مدار الأزمنة وتغير الأماكن..

وحينذاك يكون بمقدور الإنسان ليس أن يحيا سعيداً فحسب، وليس أن يفعل المعجزات فحسب، بل أن يضمن الآخرة وهو الهدف الأسمى، لأنها الحقيقة المطلقة التي تعلو على نسبيات الأرض ومتغيراتها..

طريق واحد مستقيم هو الصراط.. وإنسان متوحّد، مطمئن سعيد، مترع انسجاماً وتفاؤلاً وقدرة على الإبداع والعطاء..

وتوافق فذ بين بني آدم وبين ما يحيط بهم ويعايشهم من خلائق وسنن وموجودات...

والهدف واحد هو الله. وذلك معنى أن نقف ـ بالدين ـ متّحدين مع الله، ذلك ـ أيضاً ـ معنى أن نقف في تحدٍّ معه سبحانه..

إنه جلت قدرته يستطيع بكلمة (كن) أن يقتلع الموقف الخاطئ، لأنه الخالق ونحن المخلوقون، وهو المالك ونحن المملوكون.. وهو القادر ونحن الضعفاء العاجزون.

ولكنه سبحانه شاء أن يمنح الإنسان حريته التي تليق به، وأن يعلمه الطريق، ثم يتركه لكي يختار بنفسه.

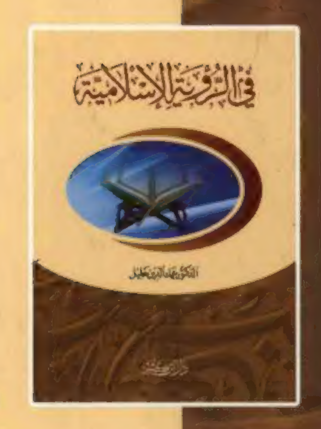
تُرى هل قَدِرَ الإنسان على اجتياز الامتحان بنجاح؟!




فهرس الموضوعات


تم بحمد الله





في حياة المسلم المعاصر، وساحات الفكر والعقيدة، أحداث وتجارب وخبرات، وقيم وآراء ومبادئ، واتجاهات ووقائع ونزعات، يتحتّم عليه أن يقف أزاءها، بين الحين والحين، لكي يسلط عليها، من زاوية رؤياه الإسلامية، تحليله واختباره، ويصدر حكمه، ويتخذ من ثم موقفه.

إن المقال الموجز ذا الصفحتين أو الثلاث، يبدو ضرورياً في زمن السرعة، وتحديات الشاشة الصغيرة، والوقت المحدود، شرط أن يتضمن قدراً من التصاميم الذهنية، ويتابع الخبرة بالتركيز المطلوب.



دمشق : ص.ب. 311
بيروت : ص.ب. 113/6318
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com